سُورَةُ التَّوْبَةِ

مدنية وهي مائة وتسع وعشرون آية

سورة مستقلة ليست بعضاً من سورة الأنفال، وتركُ التسمية في هذه السورة لا مدخل لرأي أحد فيه، وإنما هو الوحيُ، ولا مِزْية في عدم نزولها ههنا(١)، وليس المقصود ههنا إلاّ إظهار صفة القهر، ولا يتأدى ذلك مع افتتاح بالبسملة.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ هذه براءة واصلة من الله ورسوله، وأصل البراءة انقطاع العصمة ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الخطاب في

---

(١) إنما لم توجد البسملة في هذه السورة، لأنها ابتدأت بالوعيد والتهديد والعذاب، وبسم الله الرحمن الرحيم آية رحمة، ولا تناسب بين الرحمة والعذاب، فهذا هو السرُّ في عدم ذكر التسمية في هذه السورة، وقد سئل علي رضي الله عنه فقيل له: لمَ لم تكتبوا في براءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ فقال للسائل: يا بُنيَّ إن «براءة» نزلت بالسيف، والتسميةُ رحمة، والرحمةُ أمان، وهذه السورة نزلت في المنافقين.

﴿عَـٰهَدتُّم﴾ للمسلمين، وقد كانوا عاهدوا مشركي العرب، بإذن الله واتفاق الرسول ﷺ، فنكثوا إلا بني كنانة وبني ضمرة، وإنما نسبت البراءة إلى الله ورسوله لأنها عبارةٌ عن إنهاء حكم الأمان، وذلك منوط بحكم الله عز وجل، لأنه أمر كسائر الأوامر، واشتراك المسلمين في حكمها، إنما هو على طريقة الامتثال بالأوامر، وأما المعاهدة فحيث كان عقداً لا يتحصل في نفسه إلا بمباشرة المتعاقدين، لم يتصور صدورها عنه سبحانه، وإنما الصادر عنه الإذن، والذي يباشرها المسلمون، فنُسبت كلُّ واحدة منهما إلى من هو أصل فيها، وإدراج النبي ﷺ في النسبة الأولى للتنويه بشأنه، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على دوامها على أن في ذلك تفخيماً لشأن البراءة، وتهويلاً لأمرها.

﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ شوال، وذي القعدة، وذي الحجة، والمحرم، وقيل: هي عشرون من ذي الحجة، والمحرم، وصَفر، وربيع الأول، وعشرٌ من ربيع الآخر، لأن التبليغ كان يوم النحر، والمقصود من هذا التأجيل أن يتفكروا، ويحتاطوا لأنفسهم، ويعلموا أنه ليس لهم بعد هذه المدة إلا الإسلام، أو القتل، فيصير هذا داعياً لهم إلى الدخول في الإسلام، روي أنه ﷺ أراد أن يحج سنة تسع، فقيل له: المشركون يحضرون الحج ويطوفون بالبيت عراة، فبعث أبا بكر في تلك السنة أميراً على الموسم، ليقيم للناس الحج، ثم بعث بعده علياً. أخرجه أحمد والترمذي وحسَّنه عن أنس قال: بِعث النبي ﷺ ببراءة مع أبي بكر، ثم دعاه فقال: لا ينبغي لأحدٍ أن يبلغ هذا إلاّ رجلٌ من أهلي، فدعا علياً فأعطاه إياه ليقرأ على الناس صدر براءة، فلما لحق علي قال أبو بكر رضي الله عنه: أمير أو مأمور؟ قال علي: مأمور، فمضيا فلما كان يوم التروية خطب أبو بكر، وعلَّم الناسَ مناسكهم، وقام علي يوم النحر عند حجرة العقبة، فقال: أيها الناس إني رسولُ رسولِ الله إليكم فقالوا بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية، من أول سورة براءة، ثم قال: أُمرت بأربع: أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، وألاّ يطوف بالبيت عُريان، ولا

يدخل الجنة إلا كلُّ نفس مؤمنة، وأن يُتَمَّ لكل ذي عهد عهده[1]، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ﴾ بسياحتكم في أقطار الأرض ﴿غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي غير فائتين عذابه، بالهرب والتحصُّن ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالقتل والأسر في الدنيا، والعذاب في الآخرة، ووضع اسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ موضع الضمير، لتربية المهابة، وتهويل أمر الإخزاء.

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي إعلامٌ، فَعَالٌ بمعنى الإفعال، كالعطاء بمعنى الإعطاء وإنما قال: ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي كافة، لأن الأذان غير مختص بقوم، كالبراءة الخاصة بالناكثين، بل هو شامل لجميع الناس ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ يوم العيد، لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، ولأن الإعلام كان فيه، لما أخرج البخاري وأبو داود وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات، فقال: أيُّ يوم هذا؟ قالوا: يوم النحر، قال هذا يوم الحج الأكبر»[2] ووصفُ الحج بالأكبر، لأن العمرة تسمى حجاً أصغر، وأمَّا تسمية الحج الموافق يوم عرفة فيه ليوم الجمعة بالأكبر، فلم يذكروها، وإن كان ثواب ذلك الحج

---

(١) انظر سنن الترمذي ٥/ ٢٥٧ من كتاب التفسير، ومسند الإمام أحمد ١/ ٧٩ أقول: وإنما بعث ﷺ علياً بعد أبي بكر، من أجل أن عادة العرب قد جرت في عقدها ونقض العهد، أن يتولى ذلك رجلٌ من نفس القبيلة، فلهذا بعث علياً ليؤذن المشركين بذلك، وليس فيه ـ كما زعم بعض الجهلة ـ تفضيل عليٍّ على أبي بكر، فقد كان أبو بكر في ذلك العام الإمام، وعليٌّ يأتمُّ به، وأبو بكرٍ الخطيب، وعليٌّ يُسْمِع الناس.

(٢) انظر فتح الباري على البخاري ٨/ ٣٢٠.

زيادةً على غيره ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ من المعاهدين الناكثين ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ أي ورسوله كذلك بريء من المشركين ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ من الكفر والغدر بنقض العهد، والالتفاتُ للتهديد ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ أي التوبة خير لكم في الدارين ﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ عن الإيمان والتوبة ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ﴾ لا تفوتونه طَلَبًا، ولا تعجزونه هَرَباً ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم في الآخرة، والتعبيرُ بالبشارة للتهكم والسخرية.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ استدراك من النبذ السابق، كأنه قيل: لا تمهلوا الناكثين فوق أربعة أشهر، لكنِ الذين عاهدتم من المشركين، ولم ينقضوا عهدهم، فلا تُجروهم مجرى الناكثين، في المسارعة إلى قتالهم، بل أتمُّوا إليهم عهدهم، وهم «بنو ضَمْرة» من كِنانة، أمر الله تعالى بإتمام عهدهم، وكان بقي من مدتهم تسعة أشهر ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ من شروط العهد والميثاق ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ﴾ أي ولم يعاونوا ﴿عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا﴾ من أعدائكم ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ﴾ أي أدُّوا إليهم العهد كاملاً ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ أي إلى انقضائها، ولا تفاجئوهم بالقتال عند مضي الأجل المضروب للناكثين، ولا تعاملوهم معاملتهم، وهذه الطائفة لما أنفوا النكث، استحقوا من الله تعالى أن يُصان عهدهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ تنبيه على أن مراعاة حقوق العهد، من باب التقوى، وإن كان المعاهد مشركاً، وأن التسوية بين الغادر والوفيِّ، منافيةٌ لذلك.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ انقضى وأصل الانسلاخ خروج الشيء مما لابَسَه، يقال: سلختُ الإهاب عن الشاة أي كشطته ونزعته عنها، والانسلاخ فيما نحن فيه استعارة حسنة، وفي ذلك مزيد لطف، لما فيه من التلويح بأن تلك الأشهر، كانت حرزاً لأولئك المعاهدين، عن غوائل أيدي المسلمين، فَنِيطَ قتالهم بزوالها. ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين للعهود، أو الآية على العموم، أي قاتلوا المشركين كافة، واقتلوا الكفار مطلقاً ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ من حِلٍّ وحَرَم ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي بالأسر، والأخيذُ: الأسيرُ، وفُسِّر الأسرُ بالربط، لا لا باسترقاق، وقيل: المراد إمهالهم للتخيير بين الإسلام، والقتل ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ أي احبسوهم في القلاع والحصون، حتى يُضطروا إلى الإسلام أو القتل ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي كلَّ ممر، لئلا ينبسطوا في البلاد، والقعود ليس المراد حقيقة، بل المراد ترقبهم وترصدهم، فالمعنى: ارصدوهم في كل مرصد يُرصد فيه ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ عن الشرك ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ طيبةً بهما أنفسهم، تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم، واكتفى بذكرهما لكونهما رأسَ العبادات البدنية، والماليّة ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ فدعوهم ولا تتعرضوا لهم بشيء من ذلك، وفيه دليل على أن تارك الصلاة، ومانع الزكاة لا يُخلّى سبيله، وتخلية السبيل في كلام العرب: كنايةٌ عن الترك، ونُقل عن الشافعي أنه استدلَّ بالآية، على قتال تارك الصلاة، وقتال مانعي الزكاة، لأنه تعالى أباح دماء الكفار بجميع الأحوال، ثم حرّمها عند التوبة عن الكفر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ولعل أبا بكر رضي الله عنه استدلَّ بها على قتال مانعي الزكاة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما قد سلف، ويثيبهم بإيمانهم وطاعتهم.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ المأمور بالتعرض لهم ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ استأمنك عن القتل، وطلب منك جوارك، للتعرف على أمور الدين، بعد انقضاء الأشهر، من المشركين الذين أمرتُك بقتالهم ﴿فَأَجِرْهُ﴾ أي فآمنْهُ ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي يتدبَّر ويطَّلع على حقيقة الأمر، ويعرف دين الله ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ بعد سماع كلام الله، إنْ لم يؤمن ﴿مَأْمَنَهُۥ﴾ أي موضع أمنه، وهو ديار قومه، التي يأمنون فيها، ثم يجوز قتالهم وقتلهم فيه، والآية دليلٌ على أن المستأمن، لا يؤذى، وليس له الإقامة في دار الإسلام، ويُمكَّنُ من العودة إلى وطنه ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمن ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ما الإيمان، وما حقيقة الدين الذي تدعوهم إليه، فلا بدَّ من أمانهم، ريثما يسمعون كلام الله تعالى ويتدبرونه، ولا يبقى لهم معذرة، قال الحسن: هذه الآيةُ محكمةٌ إلى يوم القيامة، واختلف في مقدار مدة الإمهال، فقيل: أربعة أشهر، وقيل: مفوّضٌ إلى رأي الإمام، ولعله الأشبه.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ كيف استفهام بمعنى إنكار الوقوع لا الواقع، والمراد بالمشركين الناكثون، لأن البراءة إنما هي في شأنهم، أيْ على أيِّ حالٍ يوجد لهم ﴿عَهْدٌ﴾ معتدٌّ به ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ يستحق أن تُراعى حُقوقه، ولا يتعرض لهم أخذاً ولا قتلا؟ أي كيف يكون للمشركين عهد مع إضمار الغدر، فلا تطمعوا في وفائهم وتمسكهم بالعهد ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ﴾ أي لكنِ الذينَ عاهدتم ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهم المستثنون فيما سلف، والتعرض لكون المعاهدة ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ لزيادة بيان عظم شأنها، وحرمة المعاهدة ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾

أي مدة استقامتهم لكم، استقيموا معهم بالوفاء بالعهد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يوفون بالعهود، ويخافون الموعود.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿كَيْفَ﴾ تكريرٌ للاستنكار، وفائدة التكرار التأكيد بعدم الثقة بعهودهم ووعودهم، أي كيف يكون لهم عهد معتد به عند الله وعند رسوله ﴿وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ أي يظفروا بكم ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ﴾ أي لا يراعوا في شأنكم ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي حِلفاً، ولا عهداً، ومعنى ﴿يَظْهَرُوا عَلَيكُم﴾ أي يغلبوكم وينتصروا عليكم، وأصلُ الرقوب: النظرُ بطريقِ الحِفظ والرعاية، ومنه الرقيبُ، ثم استعمل في مطلق الرعاية، والإِلُّ: بكسر الهمزة: العهدُ والقرابةُ، أي لا يخافون الله، ولا يراعونه فيكم، والذمَّةُ: الحقُّ الذي يُعاب، ويُذمُّ على إغفاله، وسمي به لأن نقضه يوجب الذمَّ، فالمعنى أن وجوب مراعاة حقوق العهد، على كلٍّ من المتعاهدين، مشروطٌ بمراعاة الآخر لها، فإذا لم يراعها المشركون، فكيف تراعونها أنتم؟ ولمَّا كان تعليق عدم رعاية العهد بالظفر، موهماً للرعاية عند عدمه، بيَّن أنهم في حالة العجز، أيضاً، ليسوا من الوفاء في شيء، وأنَّ ما يُظهرونه لكم، مداهنةٌ لا مُهادنة ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي يقولون بأفواههم كلاماً حلواً، بالوعد بالوفاء بالعهد، ويؤكّدون ذلك بالأيمان الكاذبة، ويتعلَّلون عند ظهور خلافه، بالمعاذير الكاذبة، وتقييدُ الإرضاء بالأفواه، للإيذان بأنَّ كلامهم، مجرد ألفاظٍ يتفوَّهون بها، من غير أن يكون لها مصداقٌ في قلوبهم ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ ما يتفوه به أفواههم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ناقضون للعهد ومتمرِّدون، ليست لهم مروءةٌ رادعة، ولا عقيدة وازعة، وتخصيص الأكثر لما في بعض الكفرة من التحامي عن الغدر، ووصفُ الكفرة بالفسق في غاية الذم.

﴿ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي استبدلوا بالقرآن وآياته الآمرة بالاستقامة، تركوها وأخذوا بدلها ﴿ ثَمَنٗا قَلِيلٗا ﴾ عوضاً يسيراً، وهو اتباع الهوى والشهوات، والجملةُ كالتعليل لقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُم فاسِقونَ﴾ لأن من فسق وتمرّد، اتَّبع الهوى والشهوات، والركون إلى اللذات ﴿ فَصَدُّواْ ﴾ أي صرفوا ومنعوا غيرهم عن الإيمان ﴿عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾ أي عن دينه الموصل إلى الله تعالى ﴿ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ أي بئس ما كانوا يعملونه، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ أي عملهم هذا القبيح.

﴿ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ ﴾ نعى عليهم عدم مراعاة حقوق عهد المؤمنين مطلقاً، أي لا يراعون في قتل مؤمن ـ لو قدروا عليه ـ عهداً ولا ذمة ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بما عُدِّد من الصفات السيئة ﴿ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴾ المجاوزون الغايةَ القصوى من الظلم والبغي.

﴿ فَإِن تَابُواْ ﴾ عن الكفر، وسائر العظائم، كنقض العهد وغيره ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ على الوجه المأمور به ﴿ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ ﴾ أي فهم إخوانكم ﴿ فِي ٱلدِّينِۗ ﴾ أي لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم فعاملوهم معاملة الإخوان، وفيه استمالتهم ما لا مزيد عليه، وبها استدل على تحريم دماء أهل القبلة، وقتال من ترك الصلاة أو الزكاة، قال ابن مسعود: «أمرتم بالصلاة والزكاة، فمن لم يزكِّ فلا صلاة له». ومما يدلُّ عليه ما روي عن أبي هريرة أنه قال: لما توفي النبي ﷺ، واستُخلف أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: «كيف تقاتل الناسَ، وقد قال ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا «لا إله إلاّ الله» فمن قال: «لا إله

إلا الله» عصم مني مالَه ونفسَه، إلاَّ بحقه، وحسابُه على الله تعالى» فقال أبو بكر: واللهِ لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حقُّ المال، واللهِ لو منعوني عَنَاقاً ـ أنثى المعز ـ كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، فقال عمر: فواللهِ ما هو إلاَّ أن رأيتُ أنَّ الله شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق»[1] ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي نبيِّنها والمراد بها الآيات المتعلقة بأحوال المشركين ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيتفكرّون فيها.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾ أي وإن لم يفعلوا ذلك بل نقضوا ﴿أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ وأظهروا ما في ضمائرهم من الشرِّ ﴿وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ بصريح التكذيب، وتقبيح الأحكام، وتوجيه الطعن إلى الدين نفسه، ومن ذلك الطعن بالقرآن، وذكر النبي ﷺ بسوء، فيقتل الذمي به، استدلالاً بالآية ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ أي فقاتلوهم، فوضع ﴿أئمَّةَ الكُفرِ﴾ موضع الضمير، للدلالة على أنهم أهلُ الرياسة والتقدم بالكفر، أحقاء بالقتل، وتخصيصُهم بالذكر، لأن قتلهم أهمُّ ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ أي لا عهود لهم ولا وعود على الحقيقة، وإلا لما طعنوا ولم ينكثوا، وفيه دليل على أن الذميَّ إذا طعن في الإسلام، فقد نكَثَ عهدَه ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿فقاتلوا﴾ أي قاتلوهم إرادة أن ينتهوا، أي ليكنْ غرضكم من القتال انتهاؤهم عما هم عليه من الكفر، لا مجرد الأذية لهم والترجي من المخاطِبين، لا من الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ٢١٧/١٣ ومسلم في الإيمان رقم ٢٠ وفي رواية «لو منعوني عِقَالاً» وهو الحبل الذي يربط به البعير.

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥ ﴾.

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ ﴾ تحريض على القتال لأن همزة الاستفهام فيه للإنكار وقد دخل بعدها النفي، ونفي النفي إثبات، فيفيد الحث والتحريض عليه أي فقاتلوا ﴿ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ ﴾ وهم كفار مكة، نكثوا أيمانهم التي عقدوها في الحديبية مع الرسول ﷺ والمؤمنين، على أن لا يعاونوا عليهم، فعاونوا حلفاءهم «بني بكر» على «خزاعة» حلفاء رسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿ وَهَمُّواْ ﴾ أي عزمت قريش ﴿ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾ من مكة، حين تشاوروا في أمره بدار النَّدْوة ﴿ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ ﴾ بقتال خزاعة، والبادي أظلم. ذكر سبحانه ثلاثة أمور، كل منها يوجب مقاتلتهم لو انفرد، فكيف بها حال الاجتماع؟ ثم زاد ذلك بقوله ﴿ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ ﴾ أي أتتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم؟ ﴿ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ ﴾ أي فالله أحقُّ بأن تخشوا عقوبته، بمخالفة أمره، وترك قتال عدوه؟ ﴿ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ فقاتلوا أعداءه، فإن قضية الإيمان أن لا يخشى المؤمن إلاَّ منه سبحانه.

﴿ قَٰتِلُوهُمۡ ﴾ أمرٌ بالقتال بعد بيان موجبه، والتوبيخ على تركه ﴿ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ وعدٌ لهم إن قاتلوهم بالنصر عليهم، والتمكن من قتلهم وإذلالهم، تشجيعاً لهم، وتثبيتاً لقلوبهم ﴿ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾ يعني خُزاعة وبطوناً من اليمن وسبأ، قدموا مكة فأسلموا، فلقوا من أهلها أذى شديداً، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال: أبشروا فإن الفرج قريب، والظاهر أنه على العموم، لأن كل مؤمن يُسرُّ بقتل الكفار وَهَوَانهم.

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لما لقوا منهم من المكاره والمكايد، وقد أوفى الله بما وعدهم، ووقوع ما أخبر عنه معجزة عظيمة، وفي ذكر الأيدي لتكون البشارة بالتعذيب على الوجه الأتم، الذي يترتب عليه شفاء الصدور، إذْ فرقٌ بين تعذيب العدو بيد عدوه، وتعذيب العدو بيد غيره، فالأول أشقى، وأوقع في النفس ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ إخبار بأن بعضهم يتوب عن كفره، ويتوب الله تعالى عليه، فإن القتال كما تسبّب لتعذيب أناس، تسبَّب لتوبة قوم آخرين، فقد أسلم ناس، وحَسُنَ إسلامهم، منهم أبو سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وسهل بن عمرو، وهم كانوا أئمة الكفر ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل ولا يحكم إلاّ على وفق الحكمة والمصلحة، فامتثلوا أمره عز وجل، واغتنموا منافع الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ خطاب للمؤمنين حين كره بعضهم القتال، أي بل أحسبتم وظننتم أيها المؤمنون ﴿أَن تُتْرَكُوا۟﴾ على ما أنتم عليه، ولا تؤمرون بالجهاد، ولا تمتحنون، ليظهر الصادقُ من الكاذب ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ علم ظهور ﴿ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ أي ولم يتبيَّن الخُلَّص منكم، وهم الذين جاهدوا من غيرهم؟ والمعلوم هو الجهاد، إذ لو وقع جهادهم، علم الله تعالى ذلك لا محالة، ومفاد الآية: هل تظنون يا معشر المؤمنين أن يترككم الله بدون امتحان، يتبيّن فيه الصادق من الكاذب، ولم تجاهدوا أعداءكم فيعلم الله ذلك منكم؟ وهو تعالى يعلم ذلك غيباً، فأراد إظهار ما عِلم ليجازي على العمل. ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ الوليجةُ: هي البطانة من غير المسلمين، أي صاحب سر، وهو الذي يطَّلع على ما في ضميرك من الأسرار، والمقصودُ من هذا نهي المؤمنين عن

موالاة المشركين، وأن يفشوا إليهم أسرارهم ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي يعلم جميع أعمالكم، ولا يخفى عليه شيءٌ منها.

﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي لا ينبغي لهم، ولا يليق ﴿أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي شيئاً من المساجد، فضلاً عن المسجد الحرام، وهو المراد هنا وإنما جُمع لأنه قبلةُ المساجد وإمامها، فعامره كعامر الجميع ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾ باعترافهم بعبادة الأصنام، وبإظهار آثار الكفر، من نصب الأوثان حول البيت، ونحو ذلك، فإن ذلك شهادة صريحة على أنفسهم بالكفر، وإن أبوا أن يقولوا نحن كفارٌ، والغرضُ من هذا نفي صحة الافتخار بالعمارة، والسقاية كما كان الجاهلية يفعلون، رُوي عن الضحاك أنه قال: لمَّا أُسِرَ العباسُ، عَيّره المسلمون بالشرك، وقطعية الرحم، فقال: ما لكم تذكرون مساوئنا، وتكتمون محاسننا؟ إنَّا لنعمر المسجد الحرام، ونحجبُ الكعبة، ونَقْري الحجيج، فنزلت الآية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يدعون عمارة المسجد، مع ما بهم من الكفر ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ التي يفتخرون بها، فصارت هباءً منثوراً بما قارنها من الشرك ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ لعظم ما ارتكبوه من الإجرام.

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي إنما يصحُّ ويستقيم أن يعمرها عمارةً يعتدُّ بها ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ على الوجه الذي نطق به الوحي، وإنما لم يذكر الإيمان بالرسول ﷺ، لما عُلم أن الإيمان بالله، قرينُه وتمامه الإيمان بالرسول ﷺ لأنه أحد جزئي الشهادة ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾

إذْ لا يُتلَّقى ذلك إلاّ منه ﷺ، أي إنما يعمرها من جمع هذه الكمالات العلمية، والعملية، ومِنْ عمارتها تزيينُها بالفرش، وتنويرِها بالسُّرُج، وإدامة العبادات والذِّكر، ودراسة العلوم الدينية فيها، وتنظيفُها، وفي الحديث الشريف «الغُدُوُّ والرَّواحُ إلى المسجد، من الجهاد في سبيل الله»(١) وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد، فاشهدوا له بالإيمان، فإن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مساجِدَ اللهِ﴾(٢) الآية» ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ أحداً ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي لم يرهب أحداً غير الله، غير مبالٍ بلومة لائم، ولا خشية ظالم، وأمَّا الخوفُ الجِبليُّ من الأمور المخوفة، فليس من هذا الباب، ولا مما يدخل في التكليف ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بتلك النعوت الجميلة ﴿أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إلى مباغيهم من الجنة وما فيها، وإبراز اهتدائهم مع ما بهم من الصفات الحسنة في معرض التوقع، لقطع أطماع الكفرة، فإن المؤمنين مع ما بهم من هذه الكمالات، إذا كان أمرهم دائراً بين «لعل» و «عسى»، فما بالُ الكفرة، وهم على ما هم عليه من كفرٍ وإجرام؟ وفي الآية لطفٌ بالمؤمنين، وترغيب لهم في ترجيح جانب الخوف، على جانب الرجاء، ومنعٌ لهم أن يغترُّوا بأحوالهم، ويتَّكلوا عليها.

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

---

(١) أخرجه الطبراني من حديث أبي أُمامة مرفوعاً.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٠٩٢ وابن ماجه رقم ٧٨٦ والحاكم وصححه.

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ ﴾ في الفضيلة وعلو الدرجة ﴿ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الخطاب للمشركين واستدل بما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: إنَّ المشركين قالوا: عمارةُ بيتِ الله تعالى، والقيامُ على السقاية، خيرٌ من الإيمان والجهاد، فنزلت الآية، وقيل: إن بعض المؤمنين فضَّلوا السقاية والعمارة على الهجرة والجهاد، واستدل له بما أخرجه مسلم وأبو داود عن النعمان بن بشير قال: كنتُ عند منبر رسول الله ﷺ في نفرٍ من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام، إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله تعالى خير مما قلتم، فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، ولكني إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيت رسول الله فيما اختلفتم فيه، وذلك يوم الجمعة، فأنزل الله الآية[1] ومعنى الآية: أجعلتم أهل السقاية والعمارة، في الفضيلة وعلو الدرجة، كمن آمن بالله واليوم الآخر، وجاهد في سبيله؟ ﴿ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ لأن عمارة المسجد، والسقاية، إنما توجب الفضيلة، إذا كانت صادرة عن المؤمن، أمَّا إذا كانت صادرة عن الكافر، فلا فائدة فيها البتة لأن الله أحبط أعمالهم ﴿وَمنْ يكفُرْ بالإيمَانِ فقدْ حَبِط عَمَلُهُ﴾ ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أُريد به المشركون، وبالظلم: الشركُ، ومعاداة الرسول ﷺ، وهذا حكم منه تعالى أنه سبحانه، لا يوفّق هؤلاء الظالمين، إلى معرفة الحق وسبيل الرشاد.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴾ استئناف لبيان مراتب فضلهم زيادة في الرد وتكميلاً له، وزيادة الهجرة للإيذان بأن ذلك من لوازم الجهاد، لا أنه اعتبر بطريق التدارك، والظاهر

---

(١) أخرجه مسلم ٢٦/١٣ وذكره الطبري في جامع البيان ١٦٩/١٤ والسيوطي في الدر المنثور ٢١٨/٣.

من السياق أن المفضل عليه أهل السقاية والعمارة من المشركين أو ممن لم تُسْتجمع هذه الصفات فيه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بتلك النعوت الفاضلة ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالثواب ونيل الحسنى بالفوز العظيم، أو بالفوز المطلق، كأن فوز ما عداهم ليس بفوز بالنسبة إلى فوزهم.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ يخبرهم ربهم بالخبر السارّ في الدنيا على لسان رسوله ﷺ، وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم وكونه سبحانه هو المبشر ما لا يخفى من اللطافة واللطف ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمة ﴿مِّنْهُ﴾ تعالى ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾ كبير ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ عالية ﴿لَّهُمْ فِيهَا﴾ في الجنات ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم لا نفاد لها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ في الجنات ﴿أَبَدًا﴾ تأكيد للخلود لزيادة توضيح المراد به، إذ قد يراد به المكث الطويل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره لمن عمل بطاعته، وجاهد في سبيله.

ولمّا وصف تعالى المؤمنين بالإيمان والهجرة والجهاد، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاثة: بالرحمة، والرضوان، والجنة.

> ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية على ما روي عن ابن عباس نزلت في المهاجرين، فإنهم لما أمروا بالهجرة قالوا إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشيرتنا وهلكت أموالنا فنزلت، وروي عن أبي

جعفر أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، حين كتب إلى قريش يخبرهم بخبر رسول الله ﷺ، أي لا تتخذوهم أولياء يمنعونكم عن الإيمان، ويصدونكم عن الطاعة، لقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ﴾ أي إن اختاروه وأصرُّوا عليه إصراراً، لا يرجى معه إقلاع أصلاً ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم﴾ أي واحداً منهم ومن في قوله سبحانه ﴿مِّنكُمْ﴾ للجنس لا للتبعيض ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ أي المتولون ﴿هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ بوضعهم الموالاة في غير موضعها.

﴿قُلْ﴾ تلوين للخطاب وأمر له ﷺ بأن يثبت المؤمنين، ويقوي عزائمهم على الانتهاء عما نهوا عنه، من موالاة الآباء، والأبناء، والإخوان، أي قل يا رسول الله للمؤمنين ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ ولم يذكر الأبناء والأزواج فيما سلف، لأن موالاة الأبناء والأزواج غير معتادة، بل هم تبع، وما هنا في المحبة، وهم أحبُّ إلى كل أحد ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي أقرباؤكم، والعشيرةُ: القبيلة، ولا واحد لها من لفظها ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي اكتسبتموها، وُصفت الأموال بذلك، لحصولها بكدِّ اليمين، وعَرَقِ الجبين ﴿وَتِجَـٰرَةٌ﴾ أي أمتعة اشتريتموها للتجارة والربح ﴿تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ بفوات وقت رواجها في أيام الموسم، والكسادُ: عدم النَّفاق والرَّواج ﴿وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ تعجبكم الإقامة فيها، من الدور والبساتين ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ نظم حبَّ الجهاد بحبِّ الله ورسوله، تنويهاً لشأنه، وتنبيهاً على أنه مما يجب أن يُحبَّ فضلاً عن أن يُكره، وإيذاناً بأن محبته راجعة إلى محبتهما ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ بعقوبة عاجلة أو آجلة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ﴾ لا يرشد ﴿ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن الطاعة، الداخلين في موالاة المشركين، وفي الآية الكريمة من الوعيد والتهديد الشديد، ما لا يكاد يتخلص منه، إلاَّ من تداركه لطفٌ من ربه، وإذا وقع التعارض بين مصلحة الدنيا، ومصلحة الدين، وجب على المسلم ترجيح الدين، على أمر الدنيا بهذه الآية.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ الخطاب للمؤمنين خاصة ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ المَواطنُ: جمعُ موطن، وهو المشهد من مشاهد الحرب، وهذا امتنانٌ على المؤمنين بالنصرة على الأعداء، التي يترك لها الغيور أحب الأشياء إليه، والمراد بالمواطن «غزوة بدر، وخيبر، وبني النضير، وبني قريظة» ونحو ذلك ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ أي وفي موطن يوم حُنين ـ وهو واد بين مكة والطائف على ثلاثة أميال من مكة ـ كانت فيه وقعة بين المسلمين وبين هوازن، في شوال سنة ثمان، وكان المسلمون اثني عشر ألفاً، العشرُ الذين حضروا إلى مكة، وألفان انضموا إليهم من الطلقاء، والأعداء كانوا أربعة آلاف، فلما التقوا قال رجل من المسلمين: لن نُغلب اليوم من قلة، إعجاباً بكثرتهم، وقيل: أول من انهزم الطلقاء، مكراً منهم، وكانوا سبباً للهزيمة، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ أي فلم تنفعكم تلك الكثرة شيئاً من النفع ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي على سَعَتها عليكم، لعدم وجدانِ مكانٍ تستقرُّون به مطمئنين ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم﴾ إلى الكفار ظهوركم ﴿مُّدْبِرِينَ﴾ من الإدبار بمعنى الذهاب إلى خلفه، والمراد الانهزام وقد ظهر منه ﷺ من الشجاعة في تلك الوقعة، ما أبهر العقول، ولم يخطر بباله ﷺ مفارقة القتال، فقال للعباس وكان صَيِّتاً صِحْ بالنَّاس، فناداهم فكرُّوا، ونزلت الملائكة، فالتقوا مع المشركين فانهزموا، وتفصيل القصة في كتب السِّير[1].

---

(١) أخرج البخاري ٨/ ٢١ في المغازي أن رجلاً قال للبراء بن عازب: أكنتم وليَّتم يوم =

وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أي طمأنينته ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي أنزل رحمته التي تسكن القلوب، وتطمئن إليها، اطمئناناً بالنصر القريب ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عامة، الذين ثبتوا، والذين انهزموا، وفيه دلالة على أن الكبيرة لا تنافي الإيمان ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ بأعينكم يعني الملائكة، واختلف في عددهم، وكذا اختلفوا في أنهم قاتلوا أم لا؟ والجمهور على أن الملائكة لم يقاتلوا إلا يوم بدر، وإنما نزلوا لتقوية قلوب المؤمنين وتأييدهم بذلك ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقتل والأسر ﴿وَذَٰلِكَ﴾ ما فعل بهم ﴿جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ لكفرهم هذا في الدنيا وفي الآخرة أشد من ذلك.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ أي يوفقه للإسلام ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ التعذيب ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أن يتوب عليه لحكمة تقتضيه ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ يتجاوز عما سلف من الكفر والمعاصي ﴿رَّحِيمٌ﴾ يتفضل عليهم، روى البخاري عن المسور بن مخرمة «أن أناساً منهم، جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، وبايعوا على الإسلام، وقالوا: يا رسول الله أنتَ خير الناس، وأبرُّ الناس، وقد سُبيَ أهلونا وأولادنا، وأُخذتْ أموالنا ـ وقد سُبي يومئذٍ ستة آلاف نفس، وأُخذ من الإبل والغنم ما لا يُحصى ـ فقال ﷺ: اختاروا إمَّا ذراريكم ونساءكم، وإمَّا أموالكم؟ قالوا: ما كنَّا نعدِل بالأحساب شيئاً، فقام النبي ﷺ فقال: إنَّ هؤلاء جاؤونا مسلمين، وإنَّا خيَّرناهم بين الذَّراري والأموال، فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً، فمن كان بيده شيءٌ وطابت به نفسه أن يردّه، ومن لا فليعطنا وليكن قرضاً علينا فنعطيه مكانه، قالوا: رضينا!! فقال ﷺ: «إنَّا

= حنين عن رسول الله؟ فقال: أشهد على نبي الله ﷺ ما ولَّى ولكنه خرج شُبَّان من أصحابه حُسَّراً، ليس عليهم كثير سلاح، فلقوا قوماً رماة، لا يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوهم رشقاً، ما يكادون يخطئون، فانكشفوا، ولقد رأيت النبي ﷺ على بغلته البيضاء ـ وأبو سفيان آخذ بزمامها ـ، وهو يقول: أنا النبيُّ لا كَذِبْ: أنا ابنُ عبد المطّلب. . اللهمَّ نزّل نصرك!! قال البراء: كنَّا والله إذا احمرَّ البأسُ نتّقي برسول الله ﷺ، وإن الشجاع منَّا الذي يحاذي به. أخرجه البخاري ومسلم.

لا ندري لعلَّ فيكم من لا يرضى، فمُروا عُرفَاءكم فليرفعوا ذلك إلينا، فرفعت إليه ﷺ العرفاء أنهم قد رضوا»[1] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ وصفوا بالمصدر مبالغةً، كأنهم عينُ النجاسة، لخبث باطنهم، أو لأنهم لا يتطهرون ولا يجتنبون النجاسة، وعن ابن عباس: أنَّ أعيانهم نجسة كالخنزير، وأكثر الفقهاء على أنَّ أعيانهم طاهرة ﴿ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ لنجاستهم وقيل: المرادُ به النهي عن الحج والعمرة، وإليه ذهب أبو حنيفة، وقاس مالك سائر المساجد على المسجد الحرام في المنع، وعند الشافعي وأحمد يمنعون من المسجد الحرام خاصة، ورُوي عن عطاء أنهم نُهوا عن دخول الحرم كله، فيكون المنع من قرب المسجد الحرام على ظاهره، وبالظاهر أخذ أبو حنيفة إذْ صرف المنعَ عن دخول الحرم، إلى المنع من الحج والعمرة، ويؤيده قوله سبحانه: ﴿ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾ وهو عام تسعة من الهجرة، ويدلُّ عليه نداء عليٍّ يوم نادى ببراءة «ألاَّ يحج بعد عامنا هذا مشرك» وكذا قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ أي فقراً بسبب منعهم، بانقطاع تُجَّارهم عنكم، لما أنهم كانوا يأتون في الموسم بالمتاجر، والعيلةُ: من عَالَ يَعِيلُ عَيْلَةً إذا افتقر، فهو عائل ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أي من عطائه أو

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٨/ ٣٣ وأبو داود في الجهاد رقم ٢٦٩٣ والنسائي ٦/ ٢٦٤ .

تفضيله بوجه آخر، فقد أرسل الله السماء عليهم مدراراً أغزر بها خيرهم، وأكثر مَيْرهم، وأسلم أهل نجد فحملوا إلى مكة الطعام، وما يعاش به، ثم فتح الله عليهم البلاد، وتوجَّه إليهم الناس من أقطار الدنيا إلى يومنا هذا، فكان إخباره تعالى بهذا معجزة والتقييد بقوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ﴾ أي أن يغنيكم، لتنقطع الآمال إلى الله تعالى، ولينبّه على أنه تعالى متفضّل في ذلك، وأن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمصالح العباد ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يعطي ويمنع.

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾ أمر المؤمنين بقتال أهل الكتاب، إثر أمرهم بقتال المشركين، وإيمانهم الذي يزعمونه ليس على ما ينبغي، فهو كعدم الإيمان لهم ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ما ثبت بالكتاب والسنة، والمراد بالرسول رسولنا محمد ﷺ والمعنى: إنهم مخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً، لأنهم لا يعملون بما في التوراة والإنجيل، بل حرفوها وأتوا بأحكام كثيرة من قِبَل أنفسهم، اتّباعاً لأهوائهم، فيكون المراد لا يتبعون شريعتنا ولا شريعتهم، ومجموع الأمرين سبب لقتالهم ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ الثابت الناسخ لسائر الأديان، وهو دين الإسلام، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الكتاب جنس يشمل التوراة والإنجيل ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾ أي ما يؤخذ من أهل الذمة ﴿عَن يَدٍ﴾ بمعنى منقادين عن قهرٍ وذلة ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أذلاء حقيرون، مقهورون بسلطان الإسلام، وعزة المسلمين.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ استئناف سيق لبيان عدم إيمان أهل الكتاب، وانتظامهم في سلك المشركين ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وإنما قالوا ذلك لأن التوراة لم تبق فيهم بعد وقعة «بخت نصَّر» فبعث الله إليهم عزيراً فكتبها من صدره، فطفق يعلمهم التوراة، فقالوا: ما أوتي عزيرٌ هذا، إلاَّ لأنه ابن الله، وبالجملة فإنَّ هذا القول كان شائعاً فيهم، ولا عبرة لإنكارهم، وحكايةُ الله عز وجلَّ أصدق مما قيل، والآية قرئت حين نزولها عليهم، فلم يكذبوها، مع تهالكهم على التكذيب ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ هو أيضاً قول بعضهم، وإنما قالوه لاستحالة أن يكون ولد بلا أب ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما صدر عنهم من العظيمتين ﴿قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ تأكيد لنسبة القولين المذكورين لهم، ونفي التجوز عنها، وللإشعار بأنه قولٌ مجردٌ عن برهان، مماثل للخرافة، من غير أن يكون له في الخارج مصداق ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ أي يشابه قولهم في الكفر والشناعة ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبلهم، وهم المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دعاء عليهم بالإهلاك، فإن من قاتله الله هلك، أو تعجيب من شناعتهم ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؟ أي كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل؟.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ﴾ وهم علماء اليهود، الحَبْرُ: واحد أحبار اليهود أي علماؤهم الكبار، ويقال لابن عباس: حَبْرُ الأمة ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ علماء النصارى، والراهب الذي تمكَّنت الرهبة والخشية في قلبه، وظهرت آثارها في وجهه ولباسه، أي اتخذ كل واحد من الفريقين علماءهم ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحلَّ اللهُ، وتحليل ما حرَّم اللهُ، وهذا هو التفسير المأثور، روي عن عديٍّ بن حاتم قال: «أتيتُ رسول الله ﷺ وفي عُنقي صليبٌ من ذهب، فقال: يا عديُّ اطرحْ عنك هذا الوثَنَ، وسمعتُه يقرأ في سورة براءة ﴿اتخذُوا أَحبَارَهُم وَرُهبانَهُم أَرباباً مِن دُونِ اللهِ﴾ الآية، فقلت يا رسول الله: لم يكونوا يعبدونهم؟ فقال ﷺ:

أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟ فقلت: بلى، قال: فذلكَ عبادتهم»[1] ونظير ذلك قولهم: فلانٌ يعبد فلاناً إذا أفرط في طاعته ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ أي اتخذه النصارى رباً معبوداً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وتأخيره في الذكر أشنع من اتخاذهم الرهبان أرباباً، لأنه مختص بالنصارى، ونسبته إلى أمه للإيذان بكمال ركاكة رأيهم، والقضاء عليهم بنهاية الجهل والحماقة ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أي والحال أن أولئك الكفرة ما أُمروا في الكتب الإلّهية وعلى ألسنة الأنبياء ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ﴾ أي ليطيعوا ويوحّدوا ﴿إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ وهو الله عزّ وجلّ، أمَّا طاعة الرسول، وسائر ما أمر الله تعالى بطاعته، فهو في الحقيقة طاعةٌ لله عزّ وجلّ، ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحقّ إلا الله، وهو تقرير للتوحيد ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له تعالى، عن أن يكون له شريكٌ في العبادة والطاعة، والآية ناعية على كثيرٍ من الفرق الضالة، الذين تركوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لكلام علمائهم ورؤسائهم، والحقُّ أحق بالاتّباع، فمتى ظهر وجب على المسلم اتباعه، وإن أخطأه اجتهاد مقلّده.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ المراد بنور الله حجته النيرّة، الدالة على وحدانيته تعالى، وتنزّهه سبحانه عن الشركاء والأولاد، وشريعته القدسية، والقرآن العظيم، الصادع بالحقّ، وقيل: نبوته ﷺ التي ظهرت صبحاً منيراً، والمراد من الإطفاء: الردُّ والتكذيب، أي يريد أهل الكتاب

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/ ٢٥٩.

أن يردُّوا دلائل الإيمان والتوحيد التي جاء بها محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي بأقاويلهم الباطلة الخارجة منها، من غير أن يكون لها مصداق تنطبق عليه، وقد قيل: مُثِّلت حالهم فيما ذكر بحال من يريد طمس نور عظيم، منبث في الآفاق بنفخه ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾ أي لا يريد ﴿إِلَّآ أَن يُتِمَّ﴾ أي يظهر ﴿نُورَهُۥ﴾ بإعلاء كلمة التوحيد، وإعزاز دين الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ جواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي يتمُّ نوره ولو كره الكافرون ذلك.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمداً ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي القرآن، الذي هو هدى للبشرية ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي الثابت وهو دين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أي يعلي دين الإسلام ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي على سائر الأديان بنسخه إيّاها، حسبما تقتضيه الحكمة ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ وَضْعُ المشركين موضع الكافرين، للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول ﷺ إلى الشرك بالله.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ﴾ شروع في بيان حال الأحبار والرهبان في إغوائهم لأتباعهم إثر بيان سوء الأتباع في اتخاذهم لهم أرباباً، وفي ذلك تنبيه للمؤمنين حتى لا يحوموا حول ذلك الحمى ولذا وجه الخطاب إليهم ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ يأخذونها بالرشوة في الأحكام، سمي أخذ المال أكلاً لأنه الغرض الأعظم منه وتقبيحاً لحالهم وتنفيراً للسامعين عنهم ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن

﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دين الإسلام ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ أي يجمعونها ويحفظونها سواء كان بالدفن أو بوجه آخر، والكنزُ: المال المدفون وقد كنزه من باب ضرب، وفي الحديث: «كل مال لا تؤدى زكاته فهو كنز[1]» ولا يشترط في الكنز الدفن بل يكفي مطلقَ الجمع والحفظ ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ نظموا في ضمن المرتشين، تغليظاً، ودلالةً على كونهم أسوةً لهم، في استحقاق البشارة بالعذاب، وفسَّر غير واحدٍ الإنفاق في سبيل الله: بالزكاة فقد روي عن ابن عباس قال: لمَّا نزلت هذه الآية، كبر ذلك على المسلمين، فقال عمر: أنا أُفرِّج عنكم، فانطلق فقال يا نبي الله: إنه كَبُر على أصحابك هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لم يفرض الزكاة، إلاَّ ليطيِّب ما بقي من أموالكم»[2] وفي الحديث عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أُدِّي زكاتهُ فليس بكنزٍ»[3] ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هو الكيُّ بهما.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي يوم القيامة توقد النار، فيحمى على هذه الأموال بالنار اللاهبة المستعرة، حتى تصبح حامية كاوية، وإنما قال ﴿عَلَيهَا﴾ والمذكور شيئان لأنه ليس المراد بهما مقداراً معيناً منهما، بل المراد الكثير منهما، وقيل: الضمير للأموال ﴿فَتُكْوَىٰ﴾ أي تُحرق

---

(١) أخرجه البيهقي عن ابن عمر بلفظ «كلُّ ما أُدِّيتْ زكاتُه وإن كان تحت سبع أرضين فليس بكنز، وكلُّ ما لا تؤدَّى زكاتُه فهو كنزٌ، ولو كان ظاهراً على وجه الأرض» وروي الحديث مرفوعاً وموقوفاً، والمشهور أنه موقوف على ابن عمر، وقد ذكر البخاري طرفاً منه في ترجمة باب فقال «باب ما أُدِّي زكاته فليس بكنز» فتح الباري ٣/ ٢٧١.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في الزكاة رقم ١٦٦٤ وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٣٣ وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) هذا الحديث موقوف على ابن عمر، وقد رواه الطبراني والبيهقي، وذكره ابن كثير في تفسيره ٢٥/ ٣٦٤ وفي البخاري ٨/ ٣٢٤ عن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله ابن عمر، فقال: هذا قبل أن تُنزل الزكاة، فلما أُنزلت جعلها الله طهرة للأموال. ا هـ.

﴿بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ خُصَّت هذه بالذكر، لأن غرض الكانزين من الكنز، أن يكونوا ذوي وجاهة، وأن يتنعموا بالمطاعم الشهية، والملابس البهية، فلوجاهتهم كان الكيُّ بجباههم، ولامتلاء جنوبهم بالطعام، كووا عليها، ولِمَا لبسوا من فاخر الثياب كُويت بها ظهورهم، وقيل: لأنهم كانوا إذا رأوا الفقير أعرضوا عنه، وطَوَوْا كَشْحاً، وولَّوْهم ظهورهم، فلذلك كويت الجباه والبطون والظهور ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ على إرادة القول أي يقال لهم: هذا ما كنزتم ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي لنفعتها، فكان عين مضرتها، وسبب تعذيبها ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي وبال كنزكم الذي ادخرتموه في الدنيا، ولم تسعفوا به الفقراء.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ أي عددها المعتدُّ بها للسنة ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ أي في حكمه وشرعه ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ بالشهور القمرية، إذ عليه يدور فلك الأحكام الشرعية ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي في ابتداء إيجاد هذا العالم ﴿مِنْهَا﴾ من تلك الشهور ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ أي محرمة فيها الحرب، واحد فرد وهو رجب، وثلاثة سَرْدٌ «ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم» ﴿ذَٰلِكَ﴾ تحريم الأشهر الحرم ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ المستقيم دين إبراهيم وإسماعيل، وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منهما، وكانوا يعظمونها حتى إن الرجل يلقى فيها قاتل أبيه أو أخيه فلا يهيجه ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ بهتك حرمتها، وارتكاب حرامها، وتخصيصها بالنهي مع أن ارتكاب المعاصي منهي عنه مطلقاً لتعظيمها، ولله سبحانه أن يميّز بعض الأوقات على بعض، كارتكابها في الحرم، وحال

الإحرام ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ جميعاً وهو حال، فالمعنى: قاتلوا المشركين لا يتخلف منكم أحد عن قتالهم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي معكم بالنصر والإمداد، وإنما وضع المظهر، مدحاً لهم بالتقوى، وإيذاناً بأنه المدارُ في النصر، أي فاتقوا لتفوزوا بولايته ونصره سبحانه.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ﴾ وهو مصدر نَسَأه إذا أخّره، أي إنما تأخير حرمة شهر إلى شهرٍ آخر، من معالم الكفر، ومظاهر الضلال، كانوا إذا جاء شهر حرام، وهم محاربون أحلوه، وحرّموا مكانه شهراً آخر، فيستحلون المحرم ويحرمون صفراً، فإن احتاجوا أيضاً أحلُّوه وحرَّموا ربيع الأول، وربما زادوا في عدد الشهور، بأن جعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر شهراً، ليتسع لهم الوقت، ولذلك نص تعالى على العدد المعين، وقد يختلف وقت حجهم لذلك، ولذا قال تعالى: ﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ فهو كفر آخر ضمُّوه إلى كفرهم ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ضلالاً زائداً على ضلالهم، أي تخلق فيهم الضلال عند مباشرتهم لمباديه وأسبابه ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ النسيء من الأشهر ﴿عَامًا﴾ سنة، ويحرمون مكانه شهراً آخر ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ فيتركونه على حرمته، رُوي عن الضحاك أن «جُنادة الكناني» كان مطاعاً في الجاهلية، وكان يقوم على جمل في الموسم، فينادي بأعلى صوته، إن آلهتكم قد أحلَّت لكم المحرَّم فأحِلُّوه، ثم يقوم في العام القابل فيقول: إن آلهتكم قد حرَّمت عليكم المحرم فحرّموه[1] ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي ليوافقوا

---

(١) حكاه الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/ ٣٧٠ من رواية ابن عباس، وحكى عن مجاهد قال: «كان رجل من بني كنانة يأتي كلَّ عام إلى الموسم ـ يعني موسم الحج ـ على حمار له، فيقول: أيها الناسُ، إني لا أُعاب ولا أُجاب، ولا مردَّ لما أقول، إنَّا قد =

عدة الأربعة المحرمة ﴿فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بمواطأة العِدَّة وحدها، من غير مراعاة الوقت، فقد استحلوا ما حرَّم الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ أي زيَّن الشيطان لهم أعمالهم القبيحة، مشتهاة للطبع محبوبة للنفس، وقرىء على البناء للفاعل ﴿زَيَّنَ﴾ وهو الله تعالى والمعنى: خذلهم وأضلَّهم، حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسنا ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هداية موصلة إلى الاهتداء، حال اختيارهم الثبات على الباطل، ولا يرشدهم إلى طَريق الخير والسعادة، وهم قد صدوا عنه بسوء اختيارهم، فتاهوا في تيه الضلال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ﴾ استفهام فيه معنى الإنكار والتوبيخ ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ﴾ أي اخرجوا للجهاد، وأصلُ النفر الخروج لأمرٍ واجب ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ تباطأتم ولم تسرعوا، أي مالكم متثاقلين حين قال لكم رسول الله ﷺ انفروا، وقوله سبحانه: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق باثاقلتم أي اثاقلتم مائلين إلى الأرض، والدنيا وشهواتها الفانية، وكرهتم مشاقَّ الجهاد، المستتبعة للراحة الخالدة، وكان ذلك في غزوة تبوك، بعد رجوعهم من الطائف، استنفرهم ﷺ في وقت قحطٍ وقيظ، وقد أدركت

= حرَّمنا المحرَّم، وأخَّرْنا صفر، وفي عام آخر يقول: إنّا قد حرمنا صفر، وأخَّرنا المحرم» فذلك هو النسيء الذي جعله الله زيادة في الكفر.

ثمار المدينة، وطابت ظلالها، مع بُعد الشقة وكثرة العدّو، فشقَّ عليهم ذلك. وذكر ابن هشام: ما خرج رسول الله ﷺ في غزوةٍ غزاها إلا وَرَّى بغيرها، إلا في غزوة تبوك، فإنه ﷺ بيّن لهم المقصد فيها، ليستعدُّوا لها ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بدل الآخرة ونعيمها الدائم؟ ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فما التمتع بها وفوائدها ومقاصدها ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ في جنب الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ مستحقر لا يُعبأ به؛ كما جاء في الحديث الشريف: «ما الدنيا في الآخرة إلاَّ كما يجعل أحدكم أصبعه في اليمّ، فلْينظر بمَ ترجع؟»(١) عاتبهم الله على إيثار الراحة في الدنيا، على الراحة في الآخرة، إذْ لا تُنال راحة الآخرة إلا بتعبِ الدنيا!!.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟﴾ أي إن لا تنفروا إلى ما استنفرتم إليه ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ الله عزَّ وجلَّ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالإهلاك بسبب فظيع، كقحطٍ، وظهور عدوّ ﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾ بعد إهلاككم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وصفهم بالمغايرة لهم، لتأكيد الوعيد، والتشديد في التهديد، أي قوماً مطيعين، مؤثرين للآخرة على الدنيا ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ أي ولا تضرون ربكم شيئاً من الضرر، بتثاقلكم عن الجهاد، ولا يقدح تثاقلكم في نصرة دينه أصلاً ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه نصر دينه، ونبيه بدونكم، والنصر بدون سبب ولا مدد.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٨٥٨ باب فناء الدنيا وبيان الحشر، والترمذي في الزهد رقم ٢٣٢٤ وابن ماجه في الزهد أيضاً رقم ٤١٠٨ ومعنى اليمِّ: البحر.

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي إن لم تنصروه فسينصره الله، كما نصره حين أخرجه الذين كفروا أي تسبَّبوا لخروجه حيث أذن له في ذلك، حين همُّوا بقتله، أو حبسه، أو نفيه، في دار الندوة(١)، فخرج بنفسه ﴿ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ ﴾ أي أحد اثنين، هو واحد والآخر أبو بكر رضي الله عنه، والمعنى: نصره الله تعالى في مثل تلك الحالة، فلا يخذله في غيرها ﴿ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ المراد من الغار غار ثور، وهو جبل في الجهة اليمنى لمكة مكثا فيه ثلاثة أيام، يختلف إليهما بالطعام «عامر بن فُهَيرة» وعلي كرم الله وجهه يجهِّزهما، واستأجر لهما دليلاً، فلمَّا كانا في بعض الليل من الليلة الثالثة، أتاهم بالإبل، والدليل، فركبوا وتوجهوا نحو المدينة ﴿ إِذْ يَقُولُ ﴾ الرسول ﷺ ﴿ لِصَٰحِبِهِۦ ﴾ أي الصديق رضي الله عنه، قالوا: من أنكر صحبة الصدِّيق فقد كفر، لإنكاره كلام الله تعالى الصريح بالصحبة ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ ﴾ بالعصمة والمعونة، وفيه بيانُ عظيم توكُّله ﷺ، روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «نظرتُ إلى أقدام المشركين، ونحن في الغار، وهم على رؤوسنا، فقلت يا رسول الله: لو أنَّ أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا، فقال: يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثهما؟»(٢) وفيه من الدلالة على علو درجة الصديق، وروي أن المشركين طلعوا فوق الغار، فأشفق أبو بكر على رسول الله ﷺ فقال ما قال، فأعماهم الله عن الغار، فجعلوا يتردَّدون حول الغار، فلم يروه ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ ﴾ طمأنينته التي تسكن عندها القلوب ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أي على الرسول ﷺ ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ الجنود هم الملائكة، أنزلهم الله تعالى ليحرسوه في الغار، ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ ﴾ أي جعل كلمة الشرك، سافلة دنيئة حقيرة،

---

(١) انظر قصة مؤامرة المشركين على رسول ﷺ في تفسير سورة الأنفال، الآية ٣٠، من هذا التفسير.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٣٢٥ ومسلم ٤/ ١٨٥٤ والترمذي ٥/ ٢٦٠.

وردَّ كيدهم في نحورهم، حين تآمروا على قتل رسول الله ﷺ في دار الندوة، حيث نجاه ربُّه، على رغم أنوفهم، وحفظه من كيدهم ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ وهي كلمة التوحيد كما قال ابن عباس، ولا يخفى ما في تغيير الأسلوب من المبالغة،، لأن الجملة الاسمية، تدلُّ على الدوام والثبات، بخلاف غيرها، ولذلك وُسِّط ضمير الفصل ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُغالب، ويعزُّ بنصره دين الإسلام ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره، وتدبيره، وحكمه، يذلُّ أهل الشرك بحكمته.

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿ٱنفِرُوا۟﴾ تجديد للأمر بالنَّفْر، بعد التوبيخ على تثاقله وتركه ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي على كل حال، من يُسرٍ أو عُسر، ومن صحةٍ ومرض، وغنى وفقر، وقلة العيال وكثرتهم، وغير ذلك، قيل: لمَّا نزلت هذه الآية اشتد على الناس فنسخها الله بقوله ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى المَرْضَىٰ﴾ الآية ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بما أمكن لكم منهما، والجهاد بالمال: إنفاقُه على السلاح، وتزويد الغزاة، ونحو ذلك ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ النفير والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، ممَّا يُبتغى بتركه من الراحة، والتمتع بالأموال والأولاد ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير فبادروا إليه.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ أي لو كان غُنْماً سهلَ المأخذ، قريب المنال ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي متوسطاً بين القريب والبعيد ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ في النفير، طمعاً بالفوز بالغنيمة ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ أي المسافة التي تقطع

بمشقة ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾ أي المتخلفون إذا رجعت من تبوك معتذرين ﴿بِٱللَّهِ﴾ أي سيحلفون بالله قائلين ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾ من جهة العُدَّة، ومن جهة الصحة، حسبما عنَّ لهم من التعلل والكذب ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ لما دعوتمونا إليه، وهذا جواب القَسَم، وهذا من المعجزات لأنه إخبار عمَّا وقع قبل وقوعه، فقالوا كما أخبر القرآن ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بالحلف الكاذب، لأن الحلف الكاذب إهلاك للنفس، وفي الحديث الشريف: «اليمينُ الفاجرةُ تَدَعُ الديارَ بلاقعَ»[1] ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في ذلك لأنهم كانوا مستطيعين الخروج ولم يخرجوا، وهذه الآياتُ نزلت في المنافقين.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ أيْ لأيِّ شيءٍ أذنت لهم بالقعود، حين استأذنوك واعتلوا بالأكاذيب؟ وهلاَّ توقَّفتَ؟ وهذا من ألطف الكلام، بتصدير العفو في الخطاب، دون ما يوهم العتاب، لمراعاة جانبه ﷺ، واحتج بعضهم بهذه الآية، على صدور الذنب عن الرسول ﷺ، وقالوا: العفو يستدعي سابقة الذنب، وأجيب بأنه ليست معاتبة، بل هو استفتاح كلام، مثل أصلحَكَ اللهُ! قال القاضي عياض: لم يتقدَّم للنبي ﷺ فيه من الله تعالى نهيٌ فيُعَدُّ معصية، إنما فعل ذلك باجتهاد، وفيه دليل جواز

---

(١) طرف من حديث أخرجه البيهقي، وانظر الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٦٢٢ ومعنى بلاقع: أي خراباً دماراً، وهذه اليمين تسمى «الغَمُوس» لأنها تغمس صاحبها في نار جهنم، وهي يمين فاجرة، لا كفارة لها، لأن ذنبها أعظم من أن يُكفَّر.

الاجتهاد، وإذنه ﷺ إنما كان اعتماداً على ظاهر إيمانهم، والخطأ في ذلك، هو ترك الأولى، الذي هو التأني، والتوقف إلى انجلاء الأمر، المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في الاعتذار من عدم الاستطاعة ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي في ذلك كأنه قيل: لم سارعتَ إلى الإذن لهم، ولم تتوقف حتى ينجلي الأمر؟ وفي الآية وجوب الاحتراز عن العجلة، ووجوب التثبت والتأني.

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي ليس من شأن المؤمنين وعادتهم، أن يستأذنوك في ﴿أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ فإن الخُلَّص منهم، يبادرون إليه من غير توقف، وحيث استأذنك هؤلاء في التخلف، كان ذلك دليلاً على نفاقهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ شهادةٌ لهم بالتقوى، وعدةٌ لهم بالثواب، أي والله عليم بأنهم مؤمنون متقون صادقون.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ في التخلف لكراهة الجهاد ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ تخصيص الإيمان بالله واليوم الآخر في الموضعين، للإشعار بأن الباعث على الجهاد الإيمان، وعدم الإيمان بهما، فمن آمن بهما قاتل في سبيل دينه وتوحيده، وهان عليه القتل فيه، لما يرجو في اليوم الآخر من النعيم المقيم، ومن لم يؤمن بمعزل عن ذلك، ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي شكَّتْ قلوبهم في الدين ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ﴾ وشكِّهم المستقر في قلوبهم ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي يتحيرون، فإن التردد ديدن المتحيّرين، كما أن الثبات دَيْدنُ المتبصّرين، والآية نزلت في المنافقين، حين استأذنوا الرسول ﷺ في القعود عن الجهاد بغير عذر، وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً.

> ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ ﴾ معك هذا يدل على أن بعضهم قالوا ذلك عند الاعتذار، فقيل تكذيباً لهم: لو أرادوه ﴿ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ ﴾ أي للخروج ﴿ عُدَّةً ﴾ أي أهبةً من الزاد والراحلة والسلاح، وغير ذلك مما لا بد للسفر والجهاد منه ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾ يعني نهوضهم للخروج والمعنى: لو أرادوا الخروج لأعدُّوا عُدَّة، لأنهم كانوا مياسير، ولكنْ ما أرادوه، لما أنه تعالى كره انبعاثهم، لما فيه من المفاسد، التي ستتبيَّن ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ أي حبسهم بالجبن والكسل، فتثبّطوا عنه، ولم يستعدّوا له ﴿ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ تمثيل لإلقاء الله كراهة الخروج في قلوبهم، أي اقعدوا مع النساء، والصبيان، والزَّمنىٰ، وهو ذمٌ بليغ لهم[1].

﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم ﴾ أي لو خرجوا مخالطين لكم ﴿ مَّا زَادُوكُمْ ﴾ أي ما أورثوكم شيئاً من الأشياء ﴿ إِلَّا خَبَالًا ﴾ أي فساداً وشراً، وعن الضحاك: غدراً ومكراً ﴿ وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ ﴾ أي ولأسرعوا ركائبهم بينكم بالنميمة، والإيضاعُ: سيرُ الإبل: إذا أسرعت، والخِلال أصله الفرجة استعمل ظرفاً بمعنى «بين» والمعنى: ولسَعَوْا بينكم بالنميمة، وإفساد ذات البين ﴿ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ يريدون أن يفتنوكم بإيقاع الفتنة والخلاف فيما بينكم، وهو من أعظم الأمور التي يجب الاحتراز عنها في الحروب، لأن عند حصول الاختلاف في الرأي، يحصل الانهزام ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ ضعفة يستمعون قولهم، ونمّامون يسمعون حديثكم للنقل إليهم، ولمّا كان انضمام المنافقين القاعدين إليهم مستتبعاً لخلل كلي، كره الله انبعاثهم، ووجه العتاب على الإذن في قعودهم، مع ما قصَّ الله فيهم، أنهم لو قعدوا بغير إذن، لظهر نفاقهم فيما بين المسلمين من أول الأمر، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فيعلم ضمائرهم وما يتأتى منهم علماً محيطاً، فيجازيهم على ذلك.

---

(١) هذه الآية في منتهى الذمّ والتقبيح لهم، على حدِّ قول الشاعر:

دَعِ المكارمَ لا ترحَلْ لِبُغْيَتِها: واقعُدْ فإنَّكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ تشتيت أمرك، وتفريق أصحابك عنك ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل غزوة تبوك، في يوم أحد، حين انصرف «عبد الله بنُ أبيّ» بمن معه، وقد تخلف بمن معه عن تبوك أيضاً بعد ما خرج ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ ودبّروا لك المكايدَ والحِيَل، ودوَّروا الآراء في إبطال أمرك، وتقليبُهَا مجازٌ عن تدبيرها ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ النصر والتأييد الإلّهي، الذي وعده الله تعالى لرسوله ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي غلب دينه وعلا شرعه ﴿وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ أي على رغمٍ منهم، والآيتان لتسلية الرسول ﷺ والمؤمنين، على تخلف المنافقين، وبيان كراهية الله عزَّ وجلَّ لخروجهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ ولا توقعني في الفتنة، أي العصيان والمخالفة، وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلفٌ، أُذن له أو لم يُؤذن[1] ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ أي في نفسها وعينها، وذلك بما فعلوا من العزيمة على التخلف، والجرأة على الاعتذارات الكاذبة ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ وعيد لهم على ما فعلوا، أي جامعة لهم

(١) الآية نزلت في «الجَدِّ بن قيس» أحد كبار المنافقين، قال للنبي ﷺ لمَّا دعاه لقتال بني الأصفر ـ يعني الروم ـ قال يا رسول الله: «ائذن لي ولا تفتنِّي، فوالله لقد عرف قومي أن لا رجل أشدُّ عُجْباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيتُ نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، فأعرض عنه رسول الله وتركه» وانظر قصته في تفسير ابن كثير ٢/ ٣٧٦.

من كل جانب، والمراد بالكافرين المنافقون، وإيثارُ وضع الظاهر للتسجيل عليهم بالكفر.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾.

﴿إِن تُصِبْكَ﴾ في بعض مغازيك ﴿حَسَنَةٌ﴾ من الظفر والغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تلك الحسنة، أي تورثهم مساءَةً، لفرط حَسَدهم وعداوتهم لك ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ من نوع شدة وكرب يفرحوا به ﴿يَقُولُوا﴾ متبجحين بما صنعوا حامدين لآرائهم ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾ أي تلافينا من الأمر ما يهمُّنا، يعنون به الاعتزال عن المسلمين، والقعود عن الحرب، والمداراة مع الكفرة ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل إصابة المصيبة ﴿وَيَتَوَلَّوا﴾ أي يعرضوا عن النبي ﷺ ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ بما صنعوا من أخذ الأمر بالاحتياط وبما أصابه ﷺ، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام السرور.

﴿قُل﴾ تبكيتاً لهم ﴿لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي لن يحدث علينا إلاَّ ما قدَّره الله لنا، من نصر أو هزيمة، ومن عزّ أو ذل، لا يتغيَّر بموافقتكم ومخالفتكم، فالكَتْبُ بمعنى التقدير، واللام للاختصاص، فتدل الآية على أن الحوادثَ كلَّها بقضاء الله تعالى ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي ناصرنا ومتولي أمورنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن حقهم أن لا يتوكَّلوا على غيره، بأن يفوِّضوا الأمر إليه سبحانه، ولا ينافي في ذلك الأخذ بالأسباب، إذا لم يعتمد عليها فقط، والآية كالتنبيه على أنَّ حال المنافقين بالضِدِّ، وأنهم لا يتوكلون إلاَّ على الأسباب الدنيوية.

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ ﴾ إعادة الأمر، لإبراز العناية بشأن المأمور به وأصل ﴿تَرَبَّصُونَ﴾ تَتَربصون حذفت إحدى التائين، أي مما تنتظرون أن يقع بنا ﴿ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ أي إلا إحدى العاقبتين، اللّتَيْن كلٌّ منهما حسنى العواقب: النصرة، أو الشهادة، فما يزعمونه مضرة للمسلمين من الشهادة، أنفع مما يعدونه منفعة من النصر والغنيمة، كما نطق به الحديث الشريف «تكفَّل الله لمن جاهد في سبيله ، لا يخرجه من بيته، إلا الجهاد في سبيل الله، وتصديقٌ بكلماته، أن يُدخله الجنة أو يردَّه إلى مسكنه، بما نال من أجرٍ أو غنيمة»[1] وفي رواية أبي داود ومسلم «من أجرٍ وغنيمة» ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ ﴾ إحدى العاقبتين الوخيمتين ﴿ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ ﴾ بقارعة من السّماء ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أو بعذاب بأيدينا وهو القتلُ ﴿ فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾ الفاء فصيحة، أي إذا كان الأمر كذلك، فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا، والمراد من الأمر التهديد، كما في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ

---

(١) الحديث أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب الجهاد ٦/ ١٥٤ ورواه مسلم بلفظ «تضمَّن الله لمن خرج في سبيله» بأوسع من هذا في باب فضل الجهاد والخروج في سبيلِ الله رقم ١٨٧٦ وفيه زيادة «والذي نفسُ محمد بيده، ما من كَلْمٍ يُكلم في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلم، لونُه لون دم، وريحه ريح مسك..» الحديث.

العَزِيزُ الكَرِيمُ﴾[1] ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ما هو عاقبتكم فإذا لقي كل منا ومنكم ما يتربصه، لا نشاهد إلا ما يسوؤكم، ولا تشاهدون إلا ما يسرنا.

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ أمر في معنى الخبر، أي لن تُتقبل منكم نفقاتكم، أنفقتم طوعاً أو كرهاً، كأنهم أمروا بأن يمتحنوا فينفقوا وينظروا هل يتقبل منهم أو لا؟ وقوله: ﴿طَوعاً﴾ أي من غير إلزام، و ﴿كَرهاً﴾ أي ملزمين، سمي الإلزام إكراهاً، لأنهم منافقون فكان الإلزام شاقاً عليهم كالإكراه، وقوله سبحانه ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليلٌ له، وما بعده بيان وتقرير له؛ والمراد بالفسقِ: العتوُّ والتمرُّدُ في الكفر.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ ما منعهم أن تقبل نفقاتهم شيء من الأشياء إلاَّ كفرهم ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة في حال من الأحوال ﴿إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ إلا حال كونهم متثاقلين، جمع كسلان ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ لأنهم لا يرجون بهما ثواباً، ولا يخافون على تركهما عقاباً، وهاتان جملتان داخلتان في حيز التعليل، وإنما جيء بهما لمجرد الذم، وإلاَّ فالكفر وحده كافٍ لعدم قبول الأعمال.

> ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ أي لا يروقك شيء من ذلك، فإنه استدراج لهم، ووبال عليهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي يعذبهم بسبب ما يكابدون لجمعها، وحفظها من المتاعب، وما يرون فيها

---

(١) سورة الدخان، آية: ٤٩.

من الشدائد والمصائب، فالمال والأولاد عذاب للكافرين[1]، دون المؤمنين، لأنهم يثابون بمتاعبهما في الدنيا والآخرة، وليس عند الكافرين من الاعتقاد بثواب الله تعالى ما يهوّن عليهم ما يجدونه ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ وتخرج أرواحهم بشدة وعنف ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فيموتوا كافرين، والجملة في موضع الحال أي حال كونهم كافرين، واستدل بتعليق الموت على الكفر، على أن كفر الكافر، بإرادته سبحانه، وفي ذلك ردٌّ على المعتزلة.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ أي يحلفون أنهم مؤمنون مثلكم ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ لكفر قلوبهم ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين، فيظهرون الإسلام تقية، ويؤيّدون كلامهم بالأيمان الفاجرة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَ إِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾[2] يُقال: فَرِقَ فَرَقاً أي خاف.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ حصناً يلجأون إليه ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ سراديب يخفون فيها أنفسهم ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ موضعاً يدخلونه ﴿لَّوَلَّوْا۟﴾ أي لصرفوا وجوههم وأقبلوا ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى أحد ما ذُكر ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يُسرعون

---

(١) معنى الآية الكريمة: لا تستحسن أيها السامع العاقل، ولا تفتتن بما أوتي هؤلاء من زينة الدنيا، وبما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد، فظاهرها نعمة وباطنها نقمة، إنما يريد الله عز وجل استدارجهم ليعذبهم بها في الدنيا، فالله يهلكهم بأموالهم بهذه المخترعات الجهنمية التي يخترعونها، من أنواع الأسلحة الفتاكة، فهم يُدمَّرون ويهلكون بأموالهم، وليس أدل على ذلك من الحرب العالمية الأولى والثانية.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤.

إسراعاً في دخوله، لا يرّدهم شيء، يقال: فرس جموح، وهو الذي لا يثنيه اللِّجام، وفيه إشعار بكمال عتوهم، وظلمة قلوبهم.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ أي يعيبك في شأنها ويطعن عليك، نزلت في أبي الجوّاظ المنافق، قال: ألا ترون إلى صاحبكم، إنما يقسم صدقاتكم في رعاء الغنم، ويزعم أنه يعدل؟ وروي عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين، فجاءه رجل من المنافقين فقال: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل!! فقال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر: ائذن لي أضربْ عنقه؟ قال ﷺ: دعه فإن له أصحاباً يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية..»[1] الحديث ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا ﴾ بيان لفساد دينهم، وحرصهم على حطاّم الدنيا، أي إن أُعطوا منها قدر ما يريدون ﴿ رَضُوا ﴾ بما وقع من القسمة واستحسنوها ﴿ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا ﴾ ذلك المقدار ﴿ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ يفاجئون السخط، يعني أن رضاءهم وسخطهم لأنفسهم، لا للدين والحق، غَايَر سبحانه بين الجملتين إشارة إلى أن سخطهم ثابت لا يزول، بخلاف رضاهم، وعن الضحاك كان النبي ﷺ يقسم ما آتاه الله من المال، قليله وكثيره، وكان المؤمنون يرضون بما أُعطوا ويحمدون الله عليه، وأمّا المنافقون فإن أعطوا كثيراً فرحوا، وإن أُعطوا قليلاً سخطوا.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ما أعطاهم الرسول ﷺ من

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٨/ ٢٣٠ ومسلم ٧/ ١٦٥ وله تتمة انظرها في الصحيحين.

الغنيمة أو الصدقة، وذكر الله للتعظيم، والتنبيه على أن ما فعله الرسول ﷺ كان بأمره تعالى ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي كفانا فضله وما قسم لنا ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ أي سيرزقنا الله صدقةً أو غنيمة أخرى، فيؤتينا أكثر مما آتانا اليوم، حسبما نرجو ونأمل ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ في أن يغنينا بفضله، والجواب محذوف بناءً على ظهوره أي لكان خيراً لهم وأعود عليهم بالنفع، ثم بين تعالى مصارف الصدقات تصويباً وتحقيقاً لما فعله الرسول ﷺ، لإصلاح الدين وأهله، لا لأغراض نفسانية كأغراضهم، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أي الزكاة لهؤلاء المعدودين، كأنه قيل: إنما هي لهم لا لغيرهم، والفقير الذي له شيء لا يكفيه، والمسكين الذي لا شيء له، فهو أسوأ حالاً من الفقير، لقوله سبحانه: ﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أي الساعين في تحصيلها وجمعها، وهم الذين يبعثهم الإمام، والساعي هو الذي يسعى في القبائل ليأخذ صدقات المواشي في أماكنها، ويُعْطَى العامل ما يكفيه بالوسط ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم كانوا ثلاثة أصناف: صنفٌ كان يؤدي لهم رسول الله ﷺ ليسلموا، وصنفٌ أسلموا لكن على ضعف، كعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، والعباس بن مرداس، وصنف كانوا يُعطون لدفع شرهم، وفي الهداية أن المؤلفة قد سقط وانعقد إجماع الصحابة على ذلك في خلافة الصدِّيق، وصحَّ أنه ﷺ كان يعطيهم من خمس الخمس، الذي كان خاصَّ ماله ﷺ ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ وللصرف في فك الرقاب بأن يعاون

المكاتب، وقيل: يباع الرق فيعتق، وبه قال مالك وأحمد، والاحتياط في سهم الرقاب دفعه إلى السيد بإذن المكاتب، وكذا القول في الغارمين يصرف المال إلى قضاء ديونهم ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ الذين تداينوا لأنفسهم في غير معصية، إذا لم يكن لهم نصاب فاضل عن ديونهم، والغارم في اللغة من عليه دين ولا يجد قضاءه، والفقر شرط في الأصناف كلها إلا العامل ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي الفقراء الغزاة، وقيل: صرف سهمهم إلى جميع وجوه الخير، من بناء المدارس، وعمارة المساجد، ونحو ذلك، والقول الأول هو الصحيح لإجماع الجمهور عليه ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي المسافر المنقطع عن ماله، والاستقراضُ له خيرٌ من قبول الصَّدقة، وفي فتح القدير: أنه لا يحلُّ له أن يأخذ أكثر من حاجته، وهذه مصارفُ الصدقات، فللمتصدّق أن يدفع زكاة ماله إلى كل واحد منهم، وأن يقتصر على صنفٍ منهم، لأن اللام لبيان أنهم مصارف، لا لإثبات الاستحقاق، وقد روي ذلك عن عمر، وابن عباس، وحذيفة، وهذا مذهبنا، وعند الشافعي لا يجوز إلاّ أن يصرف إلى ثلاثة من تلك الأصناف، ولنا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[1] وأنه ﷺ أتاه مال من الصدقة فجعله للمؤلفة، ثم أتاه مال آخر فجعله في الغارمين، فدل ذلك على أنه يجوز الاقتصار على صنفٍ واحد ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مصدر لما دلَّتْ عليه الآية، أي فرض الله لهم الصدقات فريضة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه، وبأحوال الناس ومراتب استحقاقهم ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة، من الأمور الحسنة، وإنما وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين، حسماً لأطماعهم.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٧١.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾ يسمع كل ما يقال له ويصدقه، سمي بالجارحة للمبالغة، كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة السماع، كما سمي الجاسوس عيناً لذلك، نزلت في فرقة من المنافقين، قالوه في حقه ﷺ بأنه يسمع كل ما قيل، من غير أن يتدبر فيه، ويميِّز بين ما يليق بالقبول، وبين ما لا يليق به، وإنما قالوه لأنه ﷺ كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا، ويصفح عنهم حِلماً وكَرَماً، فحملوه على سلامة القلب، وقالوا ما قالوا، سوَّد الله وجوههم، وأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ تصديق لهم بأنه أُذُنٌ، ولكنْ لا على الوجه الذي ذموا به بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله، ثم فسَّر ذلك بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ يُصدِّق بالله، وبما جاء من عنده من الآيات البينات، وذلك خير لكم وللعالمين ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويصدِّقهم لما علم من خلوصهم، واللام مزيدة للتفرقة بين الإيمان المشهور، وبين التسليم والتصديق، والإيمان بالله هو نقيض الكفر، فلا يتعدى إلا بالباء، وتصديق المؤمنين فيما يقولونه، فلا يقال إلا باللام، ومنه قوله تعالى: ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ وهو تعريض بأن المنافقين أُذُن شرٍّ، يسمعون آيات الله، ولا ينتفعون بها، ويسمعون قول المؤمنين ولا يقبلونه ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي وهو ﷺ رحمةٌ وأيُّ رحمة!! بطريق إطلاق المصدر على الفاعل مبالغةً ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ﴾ أي لمن أظهر الإيمان، حيث يقبله ولا يكشف سره، وفيه تنبيه على أنه ﷺ ليس يقبل قولكم جهلاً بحالكم بل رفقاً بكم وترحماً عليكم ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ بأي نوع من الإيذاء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لهم عذاب شديد موجع بسبب ذلك الإيذاء، وهو خبر من الله عزَّ وجل على

نهج الوعيد لغاية التعظيم لمقامه الشريف ﷺ والتنبيه على أن أذيته راجعة إلى الله تعالى، موجبةٌ لكمال السَّخط والغضب.

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ الخطاب للمؤمنين، لقد كان المنافقون يتكلمون بما لا يليق، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكّدون معاذيرهم بالأيمان الكاذبة ليَرْضوا عنهم ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ أي أحق بالإرضاء، بالطاعة والوفاق، ولا يتسنى ذلك إلا بالصدق والمتابعة وتعظيم أمره ﷺ، والابتعاد عن الكذب والأيمان الفاجرة، والمراد ذمهم بالاشتغال فيما لا يعنيهم، والإعراض عما يهمُّهم ويُجديهم ﴿ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ جوابه محذوف تعويلاً على دلالة ما سبق، أي إن كانوا مؤمنين إيماناً صادقاً، في الظاهر والباطن، فلْيرضوا الله ورسوله، فإنهما أَحقُّ بالإرضاء.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ أولئك المنافقون الذين سبق ذكرهم، والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من الجريمة العظيمة، مع علمهم بما سمعوا من الرسول ﷺ وخامة عاقبتها من فنون الإنذارات، وألم تعلم؟ خطَابٌ لمن حاول الإنسان تعليمه مدة، ثم إنه لم يعلم، فيقول له: ألم تعلم؟ وإنما حسن ذلك، لأنه ﷺ طال مكثُه بينهم وكثر ترغيبه وترهيبه وتحذيره لهم، ولذا قيل: ألم يعلموا؟ ﴿ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي من يجاوز الحدَّ في المخالفة لأمر الله ورسوله، والمحادَّةُ: من الحدِّ بمعنى الجهة والجانب، كالمشاقَّة من الشق، والمعاداة من العداوة بمعناه، فإن كلَّ واحد في جانبٍ غير ما عليه صاحبه ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ أي فقد حقَّ أنَّ له نار جهنم ﴿ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ﴾ أي العذاب الخالد ﴿ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ أي

الذل المقارن للفضيحة، حيث يفتضحون على رؤوس الأشهاد، وهي ثمرات نفاقهم.

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ على المؤمنين في شأن المنافقين، أي يخشى المنافقون أن تنزل فيهم سورة تكشف عمّا في قلوبهم من النفاق ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ من النفاق والأسرار الخفيّة، فضلاً عما كانوا يُظهرونه فيما بينهم، من أقاويل الكفر والنفاق، ومعنى «تنبئهم» أي أنها تذيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم، فتنتشر بين الناس، فيسمعونها من أفواه الرجال، فكأنها تخبرهم بها ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ أي افعلوا الاستهزاء، وهو أمر تهديد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ ﴾ أي مظهر ﴿مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ أي ما تحذرونه من مخازيكم، المستكنة في قلوبكم، على ملأ الناس، والمراد مظهر كل ما تحذرون ظهوره من القبائح.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ عما قالوه ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ روي أن ركباً من المنافقين، مرُّوا بين يدي رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقالوا: انظروا هذا الرجل يريد أن يفتح حصون الشام، هيهات، هيهات، فأخبر الله تعالى نبيه فدعاهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا، فقالوا: لا واللهِ ما كنا في شيء من أمرك، وأمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما

يخوض الركب، لنقطع الطريق بحديثنا!! فلمّا أخبرهم الرسول ﷺ خافوا واعترفوا بأنهم قالوا ذلك على وجه الخوض واللعب، فنزلت الآية ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾؟ أي قل لهم توبيخاً على استهزائهم: أتستهزئون بدين الله وشرعه، وكتابه ورسوله؟ فكيف تزعمون الإِيمان وأنتم تهزؤون من دين الرحمٰن؟.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ أي لا تشتغلوا باعتذاراتكم، فإنها معلومةُ الكذب، لا تنفعكم بعد ظهوره ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ قد أظهرتم الكفر بإزاء الرسول ﷺ والطَّعنِ فيه ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ بعد إظهاركم الإِيمان، وهذا وما قبله، لأن القوم منافقون، فالكفر في باطنهم، ولا إيمان في نفس الأمر لهم ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم عن عقوبة الدنيا العاجلة ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي مصرّين على النفاق ومباشرين على الإِيذاء والاستهزاء، واستدل بعضهم بالآية، على أن الجدّ واللعب في إظهار كلمة الكفر سواء، ولا خلاف بين الأئمة في ذلك.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾ أي متشابهة قلوبهم في النفاق والبعد عن الإِيمان، كأبعاض الشيء الواحد، والمراد الاتحاد في الحقيقة والصورة، والآية متصلة بجميع ما ذُكر من قبائحهم وقولُه تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ الخ كالدليل، فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين، أي يأمرون بالكفر والمعاصي ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ عن

الإيمان والطاعة ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن المبرّات والإنفاق في سبيل الله، وقبضُ اليد: كنايةٌ عن الشُحّ والبخل، كما أن بسطها كناية عن الجود والسخاء، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أغفلوا ذكر الله، وتركوا طاعته ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ فتركهم من فضله ولطفه، والتعبير عنه بالنسيان للمشاكلة(١) ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الكاملون في التمرد والخروج عن دائرة الخير.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ والتعبير بالوعد للتهكم، نحو قوله سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أليم﴾ ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ أي المجاهدين ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ﴾ مخلدين ﴿فِيهَا﴾ في النار ﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ عقاباً وجزاءً، وفيه دليل على عظم عقابها، فإنه إذا قيل للمعذَّب: كفى لك هذا، دلَّ على أنه بلغ غاية النكاية ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أبعدهم من رحمته وأهانهم وفي إظهار الاسم الجليل إيذانٌ بشدة السَّخَط ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ لا ينقطع أبداً، ولا ينفك عنهم، وهو ما يقاسونه من مرض النفاق، الذي هم منه في بلية دائمة، لا يأمنون ساعة من خوف الفضيحة، ونزول العذاب.

> ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ التفات من الغَيْبة إلى الخطاب للتشديد، أي أنتم مثل الذين من قبلكم من الأمم المهلكة، فعلتم مثل ما فعل الظالمون من قبلكم ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ تفسير وبيان

---

(١) المشاكلة معناها الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى، والمراد من الآية أنهم تركوا طاعة الله، فتركهم من هدايته وتوفيقه ورحمته، والله جلَّ وعلا لا يضل ولا ينسى، فالنسيان منهم على ظاهره، والنسيان من الله بمعنى الترك.

لشبههم بهم وتمثيل لحالهم بحالهم، وفيه إيذانٌ بأن المخاطبين أولى وأحقُّ، بأن يصيبهم ما أصابهم ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟﴾ أي تمتعوا من الدنيا ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ بنصيبهم من ملاذ الدنيا ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم الخسيسة، من الشهوات الفانية، والتهائهم بها عن النظر في العاقبة، والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيقية، تمهيداً لذم المخاطبين بمشابهتهم، واقتفاء أثرهم ﴿وَخُضْتُمْ﴾ أي دخلتم في الباطل، والكذب، والاستهزاء ﴿كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ أي كالذين خاضوا فحذف نونه تخفيفاً ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الأفعال الذميمة ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي ضاعت وبطلت ولم يترتب عليها أثر ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أما في الآخرة فظاهر، وأما في الدنيا، فلأنَّ ما يترتب على أعمالهم فيها من الصحة والسعة وغير ذلك، ليس على طريق المثوبة والكرامة، بل بطريق الاستدراج ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بحبوط الأعمال ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الكاملون في الخسران، وفي الحديث الشريف: «لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ من كان قبلكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لتبعتموهم، قلنا يا رسول الله: اليهودُ والنصارى؟ قال: فمن»[1] يعني فمن يراد ممن كان قبلكم غير اليهود والنصارى؟ وفيه معجزة للنبي ﷺ حيث كان كما أخبر.

> ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾؟ أي المنافقين ﴿نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي خبرهم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ١٣/ ٢٥٥ ومسلم في العلم رقم ٢٦٦٩ باب اتباع سنن اليهود والنصارى.

الذي له شأنٌ، وهو ما فَعَلوا وما فُعِل بهم، والاستفهام للتقرير والتحذير أي قد أتاهم خبر ﴿قَوۡمِ نُوحٖ﴾ أُغرقوا بالطوفان ﴿وَعَادٖ﴾ أُهلكوا بالريح ﴿وَثَمُودَ﴾ أُهلكوا بالرجفة ﴿وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أهلك رئيسهم نمرود ببعوض وأبيدوا بعده لكن لا بسبب سماوي ﴿وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ﴾ أُهلكوا بالنار يوم الظُلَّة ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾ الائتكاف: هو الانقلاب، بجعل أعلى الشيء أسفل، المراد بها مدائن قوم لوط ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ بالمعجزات الدالة على صدقهم فكذَّبوهم ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ بأن يعذبهم بغير ذنب، والفاء للعطف على مقدَّر، أي فكذَّبوهم فأهلكهم الله عزَّ وجل، فما ظلمهم بذلك، وإيثار ما عليه النظم الكريم للمبالغة في تنزيه ساحة الربّ عن الظلم، أي وما صحَّ وما استقام له تعالى أن يظلمهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بارتكاب الذنوب، والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار ظلمهم، حيث لم يزالوا يُعرِّضونها للعقاب، بالكفر والتكذيب.

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١﴾.

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ بيانٌ لحسن حال المؤمنين والمؤمنات، حالاً ومآلاً إثر بيان قبح حال أضدادهم، عاجلاً وآجلاً، أي هم إخوة في الدين، يتناصرون ويتعاونون ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أي يدعون إلى فعل الخير، وينهون عن الشر والمنكر، على عكس المنافقين الذين يأمرون بالمنكر ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فلا يزالون يذكرون الله سبحانه فهو في مقابلة «نسوا الله» ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بمقابلة «ويقبضون أيديهم» ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ في كل أمر ونهي وهو في مقابلة وصف المنافقين بالفسق، فهذه الأمور الخمسة، التي بها يتميز

المؤمنون من المنافقين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المؤمنين والمؤمنات باعتبار اتصافهم بما سلف من الصفات ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ لا محالة، يفيض عليهم آثار رحمته، من التأييد والنصرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء عن إنجاز وعده ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يضع شيئاً إلا في محله.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ هذا في مقابلة الوعيد السابق للمنافقين ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي وعدهم وعداً شاملاً لكل أحد منهم، على اختلاف طبقاتهم في مراتب الفضل كيفاً وكماً، فإن كل أحد منهم فائز بها ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ تستطيبها النفوس ويطيب فيها العيش ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ العَدْنُ في الأصل: الاستقرارُ والثباتُ، يقال: عَدَن بالمكان إذا أقام فيه، والمراد به الإقامة على وجه الخلود والدوام، كما قال سبحانه: ﴿خَالِدِينَ فيها لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ وجنة عدن هي أبهى أماكن الجنات وأسناها ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي قدرٌ يسيرٌ من رضوانه سبحانه ﴿أَكْبَرُ﴾ أعظم من ذلك كله، أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضى يا ربنا، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك؟ فيقول: أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأيُّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[1] وفيه دلالة على أن السعادات الروحية، أفضل من السعادات

(١) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/٣٦٣ ومسلم في صفة الجنة رقم ٢٨٢٩ والترمذي رقم ٢٥٥٨.

الجسمانية ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الرضوان ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي يستحقر دونه الدنيا وما فيها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي المجاهرين منهم بالسيف ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وهم غير المظهرين للكفر باللسان، وذلك بنحو الوعظ، وإلزام الحجة ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على الفريقين في الجهاد بقسميه، ولا ترفق بهم، وعن عطاء نَسَختْ هذه الآية كل شيء من العفو والصفح، وكل من وُقِفَ منه على فساد في العقيدة، فهذا الحكم ثابت فيه، يُجاهد في الحجة، وتستعمل معه الغلظة ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مسكنهم ودار إقامتهم نار جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي مصيرهم.

﴿يَحْلِفُونَ﴾ أي المنافقون ﴿بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ بيان ما صدر عنهم من الجرائم، الموجبة لما مرَّ من الأمر بالجهاد، والغلظة عليهم، والمفسرون ذكروا فيه سبباً للنزول فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: «عبد الله بن أُبيّ» ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إلى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ فنقلها رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إليه، فجعل يحلف بالله ما قاله فنزلت الآية، وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: جاء رجلٌ فدعاه ﷺ فقال: عَلامَ تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق وجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، فأنزل الله تعالى الآية ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ هي ما حكي من قولهم ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أي وأظهروا ما في قلوبهم من

الكفر، بعد إظهار إسلامهم، وكفرهم كان ثابتاً، والإسلام الحقيقي لا وجود له ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ من الفتك برسول الله ﷺ حين رجع من غزوة تبوك، أخرج البيهقي عن حذيفة بن اليمان، قال: «كنت آخذاً بخِطَام ناقة رسول الله ﷺ أقودُ به، وعمّار يسوقه، حتى إذا كنا بالعقبة، فإذا باثني عشر راكباً قد اعترضوا فيها، فأنبهتُ رسولَ الله ﷺ، فصرخ بهم، فولَّوْا مدبرين، فقال ﷺ: «هل عرفتم القوم؟ قلنا: لا، كانوا متلثّمين، قال: هؤلاء المنافقون»[1] ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾ أي وما كرهوا وما عابوا شيئاً ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فإن أكثر أهل المدينة كانوا محاويج، في ضَنْكٍ من العيش، فلمّا قدم رسول الله ﷺ أثْرَوْا بالمغانم، ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾ عما هم عليه من القبائح ﴿يَكُ﴾ أي التوبة ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الدارين ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ﴾ بالإصرار على النفاق، ويُعْرِضوا عن التوبة ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر في هذه الدنيا، بأن يسلّط الله عليهم المؤمنين ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالنار وغيرها من أفانين العذاب ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في الدنيا مع سعتها وكثرة أهلها، والمراد بذلك التعميم ﴿مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فينجيهم من العذاب، بالمدافعة، ولا بالشفاعة، وخُصَّ ذلك في الدنيا، لأنه لا ولي ولا نصير لهم في الآخرة قطعاً، فلا حاجة لنفيه.

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه البيهقي في كتاب دلائل النبوة، وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٢/٣٨٦.

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ نزل في «ثعلبة» أتى رسول الله ﷺ وقال: أُدْعُ الله أن يرزقني مالاً، فقال ﷺ: يا ثعلبة قليلٌ تؤدّي شكره، خير من كثيرٍ لا تُطيقه!! فراجعه، فقال: والذي بعثك بالحقِّ لئن رزقني الله مالاً لأعطينَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فدعا له، فاتخذ غنماً، فنَمَتْ حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً وانقطع تدريجاً عن الجماعة والجمعة، فسأل ﷺ عنه، فحُكي له، فبعث ﷺ مصدِّقين في أخذ الصدقة، فقال: ما هذا إلاّ جزيةٌ فارجعا حتى أرى رأيي»، فنزلت[1]، والمقصود تحذير المسلمين أن يعتادوا مثل هذه الخصال الذميمة.

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ ﴾ أي منعوا حقَّ الله منه ﴿ وَتَوَلَّواْ ﴾ أعرضوا عن طاعة الله سبحانه ﴿ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ وهم قوم عادتهم الإعراض عنها، والمراد تولوا بإجرامهم وهم معرضون بقلوبهم.

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ كلُّ شيءٍ جاء بعد شيءٍ، فقد عَاقَبه وعَقَّبه، أي فجعل الله تعالى عاقبة فعلهم ﴿ نِفَاقًا ﴾ سوء اعتقاد وكفراً مضمراً ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ متمكناً في قلوبهم ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ أي يلقون الله ويلقون جزاء عملهم، وهو يوم القيامة ﴿ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ أي يلقون جزاء عملهم، بسبب إخلافهم ما وعدوه تعالى من التصدق والصلاح، وبسبب كونهم مستمرّين على الكذب، والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع، للإيذان بالاستمرار، وفي الحديث الشريف: «أربعٌ من كنَّ فيه

(١) انظر جامع البيان للطبري ١٠/ ١٩٢ وتفسير ابن كثير ٢/ ٣٨٨ وقد نقل هذا عن ابن عباس والحسن البصري. أقول: وهذا غير ثعلبة بن حاطب الصحابي المشهور، فهذا مسلم بدريٌّ، وذاك رجل منافق بنص القرآن الكريم: ﴿ومنهم من عاهد الله﴾ أي ومن المنافقين من عاهد الله، وقد اشتبه على البعض الأمر، فأنكر القصة وكذَّب الرواية، مع أنها مرويةٌ في أكثر كتب التفسير، وبالتمييز بين الاثنين ينتهي أمر الشك والتكذيب، وانظر تفسير القرطبي ٨/ ٢١٠.

كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنَّ، كانت فيه خصلةٌ من النفاق، حتَّى يَدَعَها: إذا اؤتمن خَانَ، وإذا حدَّث كَذَب، وإذا عَاهَد غَدَر، وإذا خَاصَم فَجَر»[1] أي مال عن الحق، وليس الغرض الحصر، بل كلُّ من أبطن خلاف ما أظهر، فهو من المنافقين، واستُشكل ذلك بأن هذه الخصال، قد توجد في المسلم، بل في بعض علمائنا اليوم؟ أُجيب بأن المعنى: أن هذه الخصالَ خصالُ النفاق، وصاحبُها يشبه المنافقين في التخلق بها، ويجب على المؤمن أن يجتنب عنها، فإنها في غاية القبح والشناعة.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾؟ أي المنافقون الذين عاهدوا الله تعالى، والهمزة للإنكار والتوبيخ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ أي ما أسرُّوه في أنفسهم من النفاق، والعزم على الإخلاف وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن، وتقديمُ السرِّ لأن العلم به أعظم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ فلا يخفى عليه شيء من الأشياء، حتى ما اجترؤوا عليه من العظائم.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ اللمز: العيبُ، أي هم الذين يعيبون ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ أي المتطوعين المتبرّعين ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ أي في الإنفاق من أموالهم، عن أبي مسعود البدري قال: لمَّا نزلت آية الصدقة كنَّا نحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدَّق بشيء كثير، فقالوا

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الإيمان باب علامات المنافق ١/ ٨٤، ومسلم رقم ٥٨ في الإيمان أيضاً، وأبو داود رقم ٤٦٨٨ في السنَّة.

مراء، وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إنَّ الله لغنيٌّ عن صاع هذا، فنزلت هذه الآية[١]، وحثَّ النبي ﷺ الناسَ على الإنفاق، فقال: يا أيها الناس تصدَّقوا، فقام عبد الرحمٰن بن عوف، فقال: عندي ثمانية آلاف تركت منها أربعةً لعيالي، وجئت بأربعة أقدمها إلى الله تعالى، ثم قام عاصم بن عدي الأنصاري فقال: يا رسول الله: عندي سبعون وسقاً من تمرٍ، فطعن المنافقون وقالوا: إنما جاءا بهذا للرياء والسمعة، ثم قام رجل يكنى «أبا عقيل» فقال: يا رسول الله ما لي من مال، غير أنّي آجرتُ نفسي على صاعين من تمر، فتركت صاعاً لعيالي، وجئت بصاع أقربه إلى الله تعالى، فلمزه المنافقون وقالوا: كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيلٍ، ولكنه أحبَّ أن يُذكَر، ويُعطى من الصدقات، فنزلت الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي ويعيبون الذين لا يجدون إلاَّ طاقتهم، وهم الفقراء ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أي يستهزئون بهم ويقولون: إنه محتاج إليه، فكيف يتصدق به؟ والمنافقون لا يعلمون أن هذا من موجبات الفضيلة، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي جازاهم على سخريتهم، والتعبير عنها بذلك للمشاكلة[٢] ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عذاب مؤلم موجع، فالجملة معطوفة على ما قبلها، وإنما اختلفتا فعلية، واسمية، لأن السخرية في الدنيا وهي متجددة، والعذاب في الآخرة وهو دائم، والتنوينُ في العذاب للتهويلِ والتفخيم.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٣٣٠، ومسلم في الزكاة رقم ١٠١٨، وذكره الطبري بنحوه في جامع البيان ١٠/ ١٩٥.

(٢) قال النحاس في معاني القرآن ٣/ ٢٣٦: ومعنى ﴿سَخِر اللهُ منهم﴾ أي جازاهم على سخريتهم، فسمَّى الثاني باسم الأول على الازدواج. اهـ أي على سبيل المقابلة لسخريتهم وهذا ما يسمى بالمشاكلة أو المقابلة وهي الاتفاق باللفظ مع الاختلاف في المعنى.

﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٨٠﴾.

﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ يا رسول الله ﴿أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ إخبار باستواء الأمرين، في استحالة المغفرة، وتصويره بصورة الأمر للمبالغة، قال المفسرون: لما نزلت الآية المتقدمة في المنافقين، وظهر نفاقهم للمؤمنين، جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويقولون: استغفر لنا!! فنزلت ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ المراد من السبعين التكثير دون التحديد، وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة ونحوها في التكثير ﴿ذَٰلِكَ﴾ امتناع المغفرة لهم ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ بسبب أنهم ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ﴾ فليس عدم قبول استغفارك، لبخلٍ منَّا، ولا لقصور فيك، بل لعدم قابليتهم، بسبب الكفر الصارف عنه، لأنهم كفروا كفراً متجاوزاً للحد، كما يشير إليه وصفهم بالفسق، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ فإن الفسق عبارة عن التمرد، والتجاوز عن حدود الشرع.

﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾.

﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾ أي المتخلفون عن غزوة تبوك، الذين خلَّفهم كسلُهم ونفاقهم عن الغزو ﴿بِمَقۡعَدِهِمۡ﴾ مصدر ميمي بمعنى القعود، أي فرحوا بقعودهم عن الغزو ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي بعد خروجه ﷺ مخالفةً له حين سَار وأقاموا فلم يخرجوا معه، أي فرحوا لأجل مخالفته ﷺ ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إيثاراً للدَّعَة والراحة، لِمَا في قلوبهم

من الكفر والنفاق، وإنما أُوثر ما عليه النظمُ الكريم، على أن يقول: وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو، إيذاناً بأن الجهاد في سبيل الله، مع كونه من أجلِّ الرغائب، قد كرهوه، كما فرحوا بأقبح القبائح، الذي هو القعودُ خلاف رسول الله ﷺ ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾ أي قال بعضهم لبعض تثبيطاً: لا تخرجوا إلى الغزو في الحر، فإنه لا تُستطاع شدَّتُه ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ردّاً عليهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ وقد آثرتموها بهذه المخالفة ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ أي لو كانوا من أهل الفطانة والفقه، لعرفوا أنها كذلك.

﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا﴾ في الدنيا ﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ في الآخرة، إخبارٌ عما يؤول إليه حالهم، أي وسيبكون بكاء كثيراً حين يلقون في الآخرة جزاءهم[1] ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ من فنون المعاصي، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمضارع للدلالة على الاستمرار التجددي.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ فإن ردَّك الله إلى المدينة، وفيها طائفة من المتخلفين يعني منافقيهم، والرجع إشارة إلى أن ذلك السفر، لما فيه من الخطر فيحتاج الرجوع منه، ولذا أوثر إن على إذ ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ إلى غزوةٍ أخرى بعد تبوك، التي ردَّك الله منها بتأييده عزيزاً ﴿فَقُل﴾ لهم إهانةً ﴿لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا﴾ ما دمتُ ودمتم ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ

(١) معنى الآية: أمرُ الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ماشاؤوا، فإنهم سيبكون في النار بكاءً لا ينقطع، جزاءً بما اجترحوه من الآثام، وهذا المعنى هو الذي ذهب إليه ابن عباس، والحسن، وقتادة، وانظر معاني القرآن للنحاس بتحقيقنا، طبعة مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة سنة ١٤٠٨ هـ.

﴿عَدُوًّا﴾ من الأعداء، وهو إخبارٌ في معنى النهي للمبالغة، وإبعاد لهم من محافل الصحابة، عقوبة لهم ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ﴾ عن الخروج معي وفرحتم به ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي في غزوة تبوك، والجملةُ في موضع التعليل لما سلف، أي لأنكم رضيتم بالقعود في أول مرة ﴿فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ أي المتخلفين كالنساء والصبيان، والعاجزين من الرجال كالمرضى والزمنى، والجمع المذكر للتغليب، وتفسيرُ الخالف بالمتخلف هو المأثور عن السلف، وفي الآية دليل على أنَّ الرجل إذا ظهر منه مكرٌ، وخِداع، وبدعة يجب الانقطاع عنه، وترك مصاحبتِه.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ أي من المنافقين ﴿مَّاتَ أَبَدًا﴾ وإنما جيء بصيغة الماضي، تنبيهاً على تحقق الوقوع لا محالة، قوله: ﴿أَبَدًا﴾ متعلق بالنهي أي لا تدع لهم، ولا تصلِّ عليهم أبداً، وقد روي في سبب النزول ما أخرجه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لمَّا مات عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول، دُعي له ﷺ ليصلي عليه، فلمَّا قام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، وثبتُ إليه، فقلت يا رسول الله: أتصلي على ابنِ أبيّ وقد قال يوم كذا وكذا، أعدِّد عليه، فتبسم ﷺ وقال: أخِّرْ عني يا عمر، فصلَّى ثم انصرف، فلم يمكث إلاَّ يسيراً حتى نزلت الآية»[١] وأخرجه الترمذي وزاد فيه «فما صلَّي بعده على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله»[٢] ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ أي ولا تقف عند قبره للدفن، أو للزيارة والدعاء، وفي زيارة قبور الكفار خلافٌ، وكثير من القائلين بعدم الجواز،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/٣٣٨ فتح الباري.
(٢) انظر سنن الترمذي كتاب التفسير رقم ٣٠٩٩.

حَمَل القيامَ على ما يعمُّ الزيارة، ومن أجازها استدل بقوله ﷺ: «كنتُ نهيتُكم عن زيارة القبور، ألاَ فزوروها، فإنها تذكّركم الآخرة»[1] والاحتياطُ عدم زيارة قبور الكفار ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ تعليل للنهي على معنى إن الصلاة على الميت والاحتفال به، إنما يكون لحرمته، وهم بمعزل عن ذلك، لأنهم استمروا على الكفر مدة حياتهم ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي متمردون في الكفر، خارجون عن حدود الله.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

وتقدمت مثل هذه الآية، والحكمة في تجدد النزول، إرادة أن يكون المخاطب، على تيقُّظٍ وانتباهٍ، فيما يجب أن يُحذر منه، وهو التعجبُ، والتفاخرُ بالأموال والأولاد، فالتكريرُ هنا للمبالغة في التحذير، ويجوز أن يكون هذا في فريق غير الفريق الأول، والكلام الواحد إذا احتيج إلى ذكره مع أقوام كثيرين في أوقات مختلفة، لم يكن ذكره مع بعضهم مغنياً عن ذكره مع الآخر.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

(١) أخرجه مسلم رقم ١٩٧٧ في الأضاحي، والترمذي في الأشربة رقم ١٨٧٠ وأبو داود رقم ٣٦٩٨ في الأشربة أيضاً.

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ ﴾ من القرآن فيها الإيمان والجهاد ﴿ أَنۡ ءَامِنُواْ ﴾ بأن آمنوا ﴿ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ﴾ لإعزاز دينه، وإعلاء كلمته، والخطاب للمنافقين والمراد أخلصوا الإيمان بالله، وإنما قدم الإيمان لأن الجهاد بغير إيمان لا يفيد أصلاً ﴿ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ ﴾ أي طلب الإذن منك، وفيه التفات ﴿ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ ﴾ أي ذوو الغنى والسَّعة من المنافقين، وهم من له قدرة مالية، وخُصّوا بالذكر لأنهم الملومون ﴿ وَقَالُواْ ذَرۡنَا ﴾ أي دعنا ﴿ نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ الذين قعدوا لعذر، كالمرضى، والزمنى، وكالنساء، والصبيان.

﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ ﴾ مع النساء، والمرضى، والعجزة الذين تخلفوا في البيوت ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ ما ينفعهم وما يضرهم في الدارين.

> ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (٨٩) ﴾.

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ ﴾ أي إنْ تخلَّف هؤلاء ولم يجاهدوا، فقد جاهد من هو خير منهم، نية واعتقاداً وعملاً، فهو مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾(١) وفي الآية تعريضٌ، بأن القوم ليسوا من الإيمان بالله تعالى في شيء ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿ لَهُمُ ﴾ بواسطة

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٨٩.

ذلك ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ منافع الدارين، الظفر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة، وقيل: الخيراتُ: الحورُ، لقوله تعالى: ﴿فيهنَّ خيرات حسان﴾ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطالب، كرَّر اسم الإشارة تنويهاً بشأنهم.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ بيان لما لهم من الخيرات الأخروية، عدا الفلاح والرضوان، فقد أعدَّ الله لهم حدائق وبساتين ناضرة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة، وهذه هي السعادة الكبرى.

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ أي المعتذرون ﴿مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ شروعٌ في بيان أحوال منافقي الأعراب، إثْر بيان أحوال منافقي المدينة، والمعذِّر من عذَّر في الأمر إذا قصَّر فيه وتَوانى، وحقيقته أن يوهم أن له عذراً فيما يفعل، ولا عذر له، عذرتُه فيما صَنَع: رفعتُ عنه اللَّومَ، فهو معذورٌ، أي غير ملوم، والاسم العُذْرُ، والمَعْذِرةُ، واعتذر طلب قبول معذرته، والأعراب صيغة جمع لا واحد له وليست جمعاً للعرب، يقال رجل أعرابي إذا كان بدويّاً يسكن البادية، فمن استوطن القرى والمدن فهو من العرب خلاف العجم، والأعراب: أهل البدو وهم أسد، وغطفان، وقيل: نفر من بني غفار ﴿لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾ أي استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد، وكثرة العيال ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ في غيرهم وهم منافقو الأعراب كذبوا الله ورسوله في ادعاء الإيمان ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ﴾ من الأعراب أو من المعذرين فإن منهم من اعتذر لكسله لا لكفره ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ بالقتل والأسر في الدنيا، والنار في الآخرة.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ ﴾ بيان في الأعذار الحقيقية والضعفاء كالهرمى والزمنى ومن فيه نحافة خلقية لا يقوى على الخروج معها ﴿ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ ﴾ كالعمى ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ ﴾ كجهينة ومزينة ﴿ حَرَجٌ ﴾ أي إثم وأصله الضيق ﴿ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ بالإيمان والطاعة في السر والعلانية، بأن يتعهدوا أمورهم، وأمور أهلهم، وإرادة الخير لهم، وبالاحتراز عن الأراجيف، وإثارة الفتنة ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ أي ليس عليهم جناحٌ، ولا على معاتبتهم سبيلٌ، وإنما وضع «المحسنين» موضع الضمير، للدلالة على أنهم منخرطون في سلك المحسنين، وهو من بليغ الكلام، لأن معناه لا سبيل لعاتبٍ عليهم، وهو جارٍ مجرى المثل ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فيه إشارة إلى أن كل أحد، محتاجٌ للمغفرة والرحمة، إذ الإنسان لا يخلو من تفريط، فلا يقال: إنه نفى عنهم الإثم، فما الاحتياج إلى المغفرة؟.

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ هم البكّاؤون سبعة من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: نذرنا الخروج معك، فاحملنا على الخفاف والدواب لنغزو معك، فقال ﷺ: «لا أجد ما أحملكم عليه»، فتولوا وهم يبكون ﴿ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ وفي إيثار ﴿ لَا أَجِدُ ﴾ على ليس عندي، من تلطيف الكلام، كأنه ﷺ يطلب ما يسألونه على الاستمرار فلا

يجده ﴿تَوَلَّواْ﴾ جواب إذا، أي انصرفوا، والظاهر أنه لم يخرج منهم أحد، للغزو مع الرسول ﷺ ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ﴾ تسيل ﴿مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ أي دمعها، وهو أبلغ من يفيض دمعُها، لأنه يدل على أن العين صارت دمعاً فيَّاضاً ﴿حَزَنًا﴾ أي يفيض دمعها للحزن ﴿أَلَّا يَجِدُواْ﴾ أي لئلا يجدوا ﴿مَا يُنفِقُونَ﴾ في شراء ما يحتاجون إليه للخروج معك.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالمعاتبة والمعاقبة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ في التخلف ﴿وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ﴾ واجدون للأهبة والمركب للغزو، مع سلامتهم، قادرون على الخروج معك ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ أي رضوا لأنفسهم أن يبقوا مع العجزة والنساء والصبيان، المتخلفين عن الغزو، والسبب هو رضاؤهم بالدناءة، والانتظام في جملة الخوالف إيثاراً للدَّعة ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ خذلهم الله حتى غفلوا عن وخامة العاقبة ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ غائلة ما رضوا به، وما يستتبعه عاجلاً وآجلاً.

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ﴾ في التخلف عن الخروج للجهاد في سبيل الله، وقيل الخطاب للنبي ﷺ والجمع للتعظيم، والأولى أن يكون له ولأصحابه ﴿إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ أي من الغزو ومنتهين ﴿إِلَيۡهِمۡۚ﴾ وإنما لم يقل إلى المدينة، إيذاناً بأن مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم، لا الرجوع إلى المدينة

﴿قُلْ﴾ لهم يا رسول الله، وتخصيصُه ﷺ لما أن الجواب وظيفته ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا۟﴾ بالمعاذير الكاذبة ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي لن نصدِّقكم في ذلك ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ جمع ضمير المتكلم في الموضعين لحسم أطماعهم من التصديق، وللإيذان بأن افتضاحهم بين المؤمنين كافة، فلن يصدِّقهم أحد منهم ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أتتوبون عن الكفر أم تثبتون عليه؟ فكأنه استتابة، وإمهال للتوبة ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ بالبعث يوم القيامة ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي إليه تعالى، ووضع الظاهر موضع الضمير، للدلالة على أنه تعالى مطلع على سِرِّهم وعَلنهم، لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ عند ورودكم إليه تعالى ووقوفكم بين يديه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والمراد من التنبيه المجازاة عليها، وإيثارها عليها للإيذان بأنهم ما كانوا عالمين في الدنيا بحقيقة أعمالهم، وإنما يعلمونها حينئذ.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ تأكيداً لمعاذيرهم الكاذبة والسين للتأكيد والمحلوف عليه هو ما اعتذروا به، والجملة بدل من يعتذرون ﴿إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أي إذا رجعتم من تبوك، ومعنى الانقلاب: هو الرجوعُ والانصرافُ ﴿لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ بترك المعاتبة، وتصفحوا عما فَرَط منهم، كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿لترضوا عنهم﴾ ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ إعراض اجتناب، وعن ابن عباسٍ يريد ترك الكلام والسلام، كما ينبىء التعليل بقوله سبحانه ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ قذر لخبث باطنهم، وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير، فهو علة الاعراض، وترك المعاتبة ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ من تمام التعليل، وكأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار، لا ينفع فيهم التوبيخ في الدنيا والآخرة ﴿جَزَآءً﴾ أي يُجزون جزاء ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا من فنون السيئات.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أي يحلفون بالله لكم على ما اعتذروا ﴿لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾ فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلونه بهم، لينفعهم ذلك في دنياهم فقط ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾ حسبما راموا وقبلتم عذرهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ

﴿ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي فإن رضاءكم يستلزم رضاء الله، ورضاؤكم وحده لا ينفعهم، إذا كانوا في سخط الله، والمراد به نهي المؤمنين عن مصاحبتهم، والبعد عنهم، كما يجب الاجتناب عن الأرجاس الجسمانية والآية نزلت ـ على ما روي عن ابن عباس ـ في جَدّ بن قيس، ومعتّب بن قُشير، وأصحابهما من المنافقين، وكانوا ثمانين رجلاً، أمر النبي ﷺ المؤمنين ألاّ يجالسوهم، ولا يكلموهم، فامتثلوا.

﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾.

﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾ من أهل المدن لغلظة طبائعهم، وقسوة قلوبهم، وتوحشهم، ونشأتهم في معزل عن العلم والعلماء، وما كانوا تحت سياسة سائس، ولا تأديب مؤدب، فنشأوا كما شاؤوا، فهم أشبه شيء بالبهائم، روي عن ابن عباس أنه قال: من سكن الباديةَ جفا، ومن اتّبع الصيد غَفَل، ومن أتى السلطان افتُتن ﴿وَأَجۡدَرُ﴾ أي أحق وهو مأخوذ من جَدْر الحائط بسكون الدال، وهو أصله وأساسه ويتعدى بالباء ﴿أَلَّا يَعۡلَمُواْ﴾ بأن لا يعلموا ﴿حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾ من الأحكام والشرائع لبعدهم عن مجلسه ﷺ، وحرمانهم من مشاهدات أنوار النبوة والمعجزات ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم أحوال أهل الوبر والمدر ﴿حَكِيمٞ﴾ فيما يثيب به مسيئهم ومحسنهم، عقاباً وثواباً.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ أي يَعدُّ ما يصرفه في سبيل الله ﴿مَغۡرَمٗا﴾ الغرم ذهاب المال بغير عوض، وغرم في تجارته خسر، أي

يعدّ ما يعطيه في سبيل الله مغرماً، لأنهم لا ينفقونه رجاء ثواب الله تعالى ليكون لهم مغنما، وإنما ينفقونه تقية ورئاء الناس ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي دوائر الزمان ومصائبه، لينقلب الأمر عليكم، فيتخلص من الإنفاق، ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ دعاء عليهم بنحو ما أرادوا بالمؤمنين، كقوله تعالى ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بعد قول اليهود ما قالوا ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولونه ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرونه.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ على الوجه المأمور به ﴿وَيَتَّخِذُ﴾ أي يأخذ لنفسه على وجه الاصطفاء والادخار ﴿مَا يُنفِقُ﴾ في سبيل الله ﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي سبب قربات، جمع قربة بمعنى التقرب إلى الله بالعمل الصالح ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي دعاء الرسول ﷺ واستغفاره لهم، لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدّق حين أخذ صدقته بالخير والبركة، فالمراد بالصلاة الدعاء، لكن ليس له أن يصلي عليه ويسلم، فلا يفرد به غير الأنبياء والملائكة، قال النووي: علّةُ منع الصلاة والسلام، لأن ذلك شعار أهل البدع، وأنه مخصوص في لسان السلف بالأنبياء والملائكة، كما أن قولنا عزَّ وجل مخصوص بالله تعالي، فلا يقال: محمد عزَّ وجل وإن كان عزيزاً وجليلاً ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ شهادة من الله تعالى بصحة معتقدهم، وتصديقٌ لرجائهم، والضمير لنفقتهم، أي ألا إن هذا الإنفاق، قربة عظيمة تقرّبهم من رضوان ربهم، و «ألآ» أداة استفتاح للتنبيه، والدلالة على الاعتناء بالأمر ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ وعدٌ لهم بإحاطة الرحمة عليهم، والسين للتحقيق، وهي في الإثبات في مقابلة «لن» في النفي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تقرير لما تقدم كالدليل عليه والآية نزلت في أسلم، وغفار، وجُهينة، روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «قريشٌ، والأنصار، وجُهينة، ومُزينة، وأسلم، وأشجع، وغِفار مواليّ، ليس لهم مولىً دون الله ورسوله»[1].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/ ٣٩٥ ومسلم في فضائل الصحابة رقم ٢٥٢٠.

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ أي والسابقون الأولون في الهجرة والنصرة، الذين سبقوا إلى الإيمان من الصحابة الأبرار، وهو بيان لِفضائل أشراف المسلمين، والمراد منهم أهل بدر، وأهل بيعة الرضوان ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ أي سلكوا طريقهم واتبعوهم بالإيمان والطاعة، إلى يوم القيامة، والمراد بالإحسان كل خصلة حسنة، رُوي عن حميد بن زياد قال: قلت لمحمد بن كعب القرظي: ألا تخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ، فيما كان بينهم من الفتن؟ فقال: إن الله تعالى قد غفر لجميعهم، وأوجب لجميعهم الجنة في كتابه العزيز، محسنهم ومسيئهم! فقلت له: في أيِّ موضع؟ فقال: سبحانَ الله، ألاَ تقرأ ﴿والسابِقونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهاجِرِينَ وَالأنصارِ وَالذِينَ اتَّبعُوهُم بِإحسانٍ رضي الله عنهم ورضُوا عنه﴾؟ ثم قال تعالى:

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول طاعتهم، وارتضاء أعمالهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما نالوه من النعمة الدينية والدنيوية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ﴾ يا أهل المدينة ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، من بعض قبائل العرب ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي لجُّوا واستمرُّوا وَمَهروا فيه، كابن سلول، والجلاس، وأبي

obeikandi.com

عامر الراهب، يُقال: مرد فلان على عمله إذا استمرَّ ودأب وقَهر فيه، غير أن مَرَد لا يكاد يستعمل إلا في الشر، ومرد إذا عتا فهو مارد أي ثبتوا في النفاق، ولم يتوبوا عنه، وقوله عز وجل ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أي لا تعرفهم بأعيانهم لمهارتهم في النفاق، بحيث يخفى أمرهم على كثير، ولكن نحن نعلمهم ونخبرك عن أحوالهم، قال قتادة: ما بال أقوام يتكلفون ويقولون: فلانٌ في الجنة، وفلان في النار، وإذا سألت عن نفسه، قال: لا أدري أنت أعلم بنفسك، وقد تكلفت شيئاً ما تكلف به نبيٌّ، قال نوح عليه السلام: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ وقال الله تعالى للرسول ﷺ : ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾!!.

وهذه الآية أقوى دليل في الرد على من يزعم الكشف، والاطلاع على المغيبات، بمجرد صفاء القلب، وتجرد النفس عن الشواغل ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ وعيد لهم حسبما علم الله فيهم من موجباته والسين للتأكيد، أي سنعذبهم في الدنيا بالقتل والأسر، وعند الموت بعذاب القبر واتفقوا على أن العذاب الثاني هو عذاب القبر بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ وهو عذاب النار في الآخرة، فالمنافقون يُعذَّبون ثلاث مرات: مرةً في الدنيا، ومرة في القبر، ومرة في النار، لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق، والإغراق فيه حتى صار لهم بمنزلة الطبع.

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢)﴾.

﴿وَآخَرُونَ﴾ أي ومن أهل المدينة قوم آخرون، لم يكونوا من المنافقين ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أقرُّوا بذنوبهم، التي هي تخلفهم عن الغزو، ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة، قال ابن عباس: هم عشرة تخلفوا عن غزوة تبوك، فلما حضر رجوعه ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد وكان في ممر النبي ﷺ فلما رآهم قال من هؤلاء؟ قالوا: هؤلاء

أبو لبابة وأصحابه، تخلَّفوا عنك، وقد أقسموا أن لا يُطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم، فأنزل الله الآية فأرسل ﷺ فأطلقهم[1]، والاعتراف: الإقرار بالشيء عن معرفة ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ هو إظهار الندم، والاعتراف بالذنب، والخروج إلى المغازي السابقة وغيرها ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ هو التخلف عن الغزو ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾ أي أن يقبل توبتهم، وهو المدلول عليها بقوله ﴿اعترَفُوا بِذُنُوبِهِم﴾ ولأن قبول التوبة يقتضي صدور التوبة عنهم؛ وكلمة عسى للإطماع: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إنّ الله تعالى كثير المغفرة والرحمة، يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه، وعن أبي عثمان النهدي قال: ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من هذه الآية.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ أي خذ يا محمد من هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم صدقة تطهّرهم بها من الذنوب والأوضار، قال ابن عباس: إنهم لما أطلقوا جاؤوا بأموالهم فقالوا يا رسول الله: هذه أموالنا التي خَلَّفتنا عنك بسببها، فتصدَّقْ بها عنّا، واستغفرْ لنا فقال ﷺ: ما أُمرتُ أن آخذ من أموالكم شيئاً فنزلت الآية، ثم أخذ ﷺ منها الثلث كما جاء في بعض الروايات، فليس المراد من الصدقة الزكاة، لكونها مأموراً بها، وإنما هي كفارة لذنوبهم، حسبما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ أي عما تلطخوا به من أوضار التخلف، وقيل: المراد بها الزكاة، والأمر بأخذها دفعاً لتوهم إلحاقهم ببعض المنافقين ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ وتنمّي بها حسناتهم،

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/ ٤٠٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وترفعهم إلى منازل المخلصين ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي ادع لهم ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ تسكن إليها نفوسهم، وتطمئن بها قلوبهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ باعترافهم والدعاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بندامتهم وبما تقتضيه حكمته تعالى.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾؟ الاستفهام للتقرير، أي ألم يعلم أولئك التائبون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي أن الله هو الذي يقبل التوبة عن عباده المخلصين ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي يتقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تأكيد لما عطف عليه، وزيادة تقرير، أي ألم يعلموا أنه تعالى هو وحده المستأثر بقبول التوبة والرحمة، وذلك شأن من شؤونه عز وجل، وعاداته المستمرة؟.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟﴾ ما شئتم من الأعمال فظاهره تخيير، وباطنه ترغيبٌ وترهيبٌ ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ أي أعمالكم لا تخفى على الله خيراً كانت أو شراً ﴿وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي وستعرض يوم الحساب على الرسول والمؤمنين ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيجازيكم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ أي ومن المتخلفين من أهل المدينة ومن حولها، آخرون غير المعترفين المذكورين ﴿مُرْجَوْنَ﴾ أي مؤخَّرون وموقوف أمرهم ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي لحكم الله فيهم، والمراد بهم كما في الصحيحين «هلالُ بنُ أُميّة» و «كعبُ بن مالك» و «مُرارةُ بنُ الربيع» وهم قد تخلفوا كسلاً مع الهمِّ باللحاق، فلم يتيسر لهم، ولم يكن تخلفهم عن نفاق، ـ وحاشاهم ـ

فقد كانوا من المخلصين، وقد وُقف أمرهم خمسين ليلةً، لا يدرون ما الله تعالى فاعلٌ بهم[1] ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ والمقصود تفويض ذلك إلى إرادة الله تعالى، إذ لا يجب على الله سبحانه شيء لا تعذيب العاصي، ولا مغفرة التائب، وقد أمر ﷺ أصحابه ألاّ يسلموا عليهم، ولا يكلموهم، وإنما شُدّد عليهم مع إخلاصهم، لأن الجهاد كان على الأنصار فرض عين خاصة، لأنهم بايعوا النبي ﷺ عليه وسلم في الخندق.

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

وهؤلاء من أَجِلَّتهم، فكان تخلفهم كبيرة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه بهم، فلما رأوا أن أصحاب رسول الله لا تكلمهم أخلصوا نياتهم، وفوضوا أمرهم إلى الله عز وجل، فرحم الله حالهم وقبل توبتهم رضي الله عنهم جميعاً.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا﴾ إلى جنب مسجد قباء ﴿ضِرَارًا﴾ أي مضارة لأهل مسجد قباء، أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن جماعة من المنافقين، قال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً وهيئوا ما استطعتم من قوة وسلاح، فإني ذاهبٌ إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا إلى النبي ﷺ، فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحبُّ أن تصلي فيه وتدعو بالبركة، فنزلت الآية، وكشف الله أمرهم وفضحهم، وعصم نبيَّه من الصلاةِ فيه، فلما نزلت الآية دعا ﷺ «مالك بن دخشم» و «معن بن عدي» فقال: انطلقا إلى هذا

---

(١) انظر تمام قصة الثلاثة الذين تخلفوا في صحيح البخاري ٦/ ٨٨.

المسجد الظالم أهله، فاهدماه وأحرقاه، فخرجا سريعين حتى دخلاه وفيه أهله، فأحرقاه وتفرّق أهله عنه ﴿وَكُفْرًا﴾ أي ليكفروا فيه ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين كانوا يجتمعون للصلاة في مسجد قباء، فأرادوا أن يتفرقوا وتَختلف كلمتهم ﴿وَإِرْصَادًا﴾ ترقباً وانتظاراً ﴿لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ وهو أبو عامر الراهب، وكان قد ترهب في الجاهلية وتنصّر، وقال للرسول ﷺ: لا أجد قوماً يقاتلونك إلاَّ قاتلت معهم، فلم يزل كذلك إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن ولّى هارباً إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين يحثهم إلى بناء مسجد، فبنوه منتظرين قدومه، فهدم ومات أبو عامر بقنسرين وحيداً، وبقي ما أضمروه حسرة في قلوبهم ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا﴾ أي ما أردنا ﴿إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي ما أردنا ببنائه إلاَّ الخصلة الحسنى، وهي الصلاةُ والذكر، والتوسعة على المسلمين ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في حلفهم هذا، وكلُّ مسجدٍ بُني مباهاةً أو رياءً سوى ابتغاء وجه الله، فهو لاحقٌ بمسجد الضرار، وقال عطاء: لما فتح اللهُ على عمر بن الخطاب الأمصار، أمر المسلمين أن يبنوا المساجد، وأمرهم أن لا يبنوا في موضعٍ واحدٍ مسجدَيْن، يضارُّ أحدهُما الآخر.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾ في مسجد الضرار ﴿أَبَدًا﴾ عن ابن عباس تفسير ﴿لا تقم﴾ أي لا تصلِّ، على أن القيام مجازٌ عن الصلاة، كما في قولهم: فلانٌ يقوم الليل، أي لا تصلِّ في ذلك المسجد أصلاً حسبما دَعوْك إليه ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ﴾ أي بُني أساسُه ﴿عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ أي تقوى الله وطاعته ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ متعلق بأُسّس أي منذ أول يوم ابتدىء ببنائه ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ وأحق أفعل تفضيل، أي أحقُ وأولى بأن تصلي فيه، واختلف فيه، فقيل: إنه مسجد قباء، لما جاء في الحديث الشريف، عن النبي ﷺ قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا...﴾[1] الآية،

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٥/٢٦٢ وأخرجه أيضاً أبو داود في الطهارة رقم ٤٤.

وهكذا في رواية عن ابن عباس وعن عروة بن الزبير وسعيد بن جبير، ويدل عليه سياق الآية ولحاقه، وقيل هو مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، قاله عمر، وزيد بن ثابت، ويدل عليه ما روي عن أبي سعيد الخدري قال: اختلف رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه، عن ذلك فقال ﷺ: «هو مسجدي هذا»[1] ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾ أي في هذا المسجد رجال مؤمنون أتقياء وهم الأنصار رضوان الله عليهم. ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ روى ابنُ خزيمة في صحيحه أنه ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: «إنَّ الله تعالى قد أحسن الثناء عليكم بالطهور، فما هذا؟! قالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً، إلا أننا نُتْبِع الحجارةَ بالماء، فقال هو ذاك»[2] ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ يرضى عنهم ويدنيهم من جنابه تعالى، إدناء المحب لحبيبه.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ التأسيس وضع الأساس، وهو أصل البناء وأوله، ويُستعمل بمعنى الإحكام أي أفمن أسَّس بنيان دينه ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ أي على قاعدة محكمة هي التقوى، والخوف من الله، وطلب مرضاته بالطاعة ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ الجُرُفُ: ما

---

(١) أخرجه مسلم ٢/ ١٠١٥ وأحمد في المسند ٥/ ٣٣١.
(٢) أخرجه ابن خزيمة، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٢٧٨ بنحوه، وذكره الحافظ ابن كثير ٢/ ٤٠٣.

جرفه السيلُ من الأرض، واحتفر ما تحته يريد الانهدام، والهارُ: المتصدّع المشرف على السقوط والمعنى: أفمن أسس بنيان دينه، على قاعدة محكمة، هي التقوى، وطلب الرضاء بالطاعة، خير أم من أسس بنيانه على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها، فأدى به ذلك إلى السقوط في النار، كما قال تعالى: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي فسقط به البناء وتهدّم، وهوى في نار جهنم، شبّه الباطل والنفاق في ذهابه واضمحلاله، ببناء بني على حافة هوّة سحيقة، فهوى البناء لعدم وجود أساس، ولكونه على حافة الحفرة، وهلك بمن فيه، وهو تشبيه بديع، وتمثيل رائع. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يرشدهم إلى ما فيه نجاتهم وصلاحهم.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾ أي بناؤهم الذي بنوه وهو مسجد الضرار ﴿رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي شكاً ونفاقاً، والمعنى: إن بناءهم هذا لا يزال سبب شكهم، وتزايد نفاقهم، فإنه حملهم على ذلك، ثم لمّا هدمه الرسول ﷺ رسخ ذلك في قلوبهم، لِمَا غاظهم من ذلك وعظم عليهم أمره، والريبة اسم من الريب بمعنى الشك، وجعل بنيانهم نفس الريبة للمبالغة في كونها سبباً لها، والاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي لا يزال بنيانهم ريبة في كل الأوقات، إلاّ وقت تقطّع قلوبهم، فهو تصوير لامتناع زوال الريبة عن قلوبهم ما داموا أحياء ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بجميع الأشياء التي من جملتها ما ذكر من أحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله وتشريعه.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾
تمثيل لإثابة الله إياهم الجنة، على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وترغيب للمؤمنين في الجهاد ببيان فضله، ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن وأبلغ، مما في هذه الآية، لأنه أبرزه في صورة عقدٍ، عاقدُه ربُّ العزة جل جلاله، وثمنُه الجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط، بل كونهم قاتلين أيضاً ﴿فَيَقتُلُون ويُقتَلُون﴾ لإعلاء كلمته، وجعله مسجّلاً في الكتب السماوية، ولم يقل بالجنة مبالغة في تقرر وصول الثمن إليهم، واختصاصه بهم، كأنه قيل: بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ بيان للبيع الذي يستدعيه الاشتراء المذكور، كأنه قيل: كيف يبيعونَ أنفسهم وأموالهم بالجنة؟ فقيل: يقاتلون في سبيل الله، وقولُه تعالى: ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ بيان لكون القتال بذلاً للنفس، وإن كانت سالمة وغانمة، فمن قُتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، يعني أن القتل في سبيل الله، والموت فيها سواءٌ في الأجر، وهو الموافق لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُج مِنْ بَيْتِهِ مهَاجِراً إلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى الله ﴾ ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ أي وعداً ثابتا ﴿ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ يعني هذا الوعد الذي وعده الله للمجاهدين، قد أثبته في التوراة، والإنجيل، كما أثبته في القرآن ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾؟ مبالغة في الإنجاز، وتقرير لكونه حقاً، أي لا أحد أوفى من الله جلَّ وعلا بوعده وعهده!! لأن إخلاف الوعد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق، فكيف بجانب الخلاق العالم جل جلاله؟ ﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾ أي فافرحوا به غاية الفرح، فإنه بيع الفاني بالغالي، قال الحسن البصري: بايَعهم والله فأغلى لهم الثمن، وانظروا إلى كرم الله! أنفساً هو خلقها، وأموالاً هو رزقها، ثم وهبها لهم، ثم اشتراها منهم بالثمن وهو الجنة، وإنها والله لصفقة رابحة ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ أي البيع ﴿ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ الذي لا فوز أعظم منه.

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ نعت للمؤمنين، والمراد بهم المؤمنون المذكورون ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ الذين عبدوا الله مخلصين له تعالى، قال الحسن: أما والله ما هو بشهر، ولا بسنة، ولكنْ كما قال العبدُ الصالح: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[1] ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ لنعمائه، ولما نالهم في السراء والضراء على كل حال ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ أي الصائمون لقوله ﷺ «سياحة أمتي الصوم»[2] وإليه ذهب جلة من الصحابة والتابعين، شبه بها من حيث إنه يعوق عن الشهوات، أو لأنه رياضة نفسانية، يتوصل بها إلى الاطلاع على خفايا الملك والملكوت، فشبه الاطلاع عليها بالاطلاع على البلدان، أو المراد السائحون للجهاد، أو لطلب العلم ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ في الصلاة المفروضة، وقيل هما عبارة عن الصلاة ﴿ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن الشرك والمعاصي، الجامعون بين الوصفين: الأوامر، والنواهي ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ المراد بحدود الله ما بيّنه وعيّنه من الحقائق والشرائع ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموصوفين بتلك الفضائل، ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذف المبشَّر به للتعظيم، كأنه قيل: وبشِّرهم بما يجلُّ عن إحاطة الأفهام، وتعبير الكلام.

---

(١) سورة مريم، آية ١٩.

(٢) أخرجه ابن جرير عن عائشة موقوفاً، ورواه أبو داود في الجهاد رقم ٢٤٨٦ بلفظ «سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» وانظر جامع الأصول ٩/ ٤٨٥.

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾.

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ﴾ أي المشركون ﴿ أُو۟لِى قُرْبَىٰ ﴾ أي ذوي قرابة لهم ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ ﴾ أي للنبي ﷺ والمؤمنين ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أي المشركون ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ بأن ماتوا على الكفر، وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم، فإنه طلب توفيقهم للإيمان، والآية نزلت في «أبي طالب» فقد أخرج البخاري ومسلم أنه: «لمَّا حضرت أبا طالب الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أميَّة، فقال النبي ﷺ: أيْ عمّ، قل: لا إله إلاّ الله، أحاجُّ لك بها عند الله!!» فقال أبو جهل وعبد الله: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال أبو طالب آخر ما كلَّمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: «لا إله إلاّ الله» فقال ﷺ: «لأستغفرنَّ لكَ ما لم أُنه عنك»[(١)] فنزلت، والآية على هذا دليل على أن أبا طالب مات كافراً، وهو المعروف من مذهب أهل السنة والجماعة، والشيعة الذاهبون إلى موته مؤمناً، أخبارهم عن أهل البيت أوهن من بيت العنكبوت، نعم لا ينبغي للمؤمن الخوض به كالخوض في سائر كفار قريش، فإن له مزية عليهم بما كان يصنعه مع رسول الله ﷺ من محاسن الأفعال.

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ آزر بقوله: ﴿واغفر لأبي﴾ بأن

---

(١) أخرجه البخاري ٨/٢٥٨ في التفسير، ومسلم رقم ٢٤ في الإيمان، والترمذي رقم ٣١٠٠ في التفسير.

obeikandl.com

توفقه للإيمان، عن عمرو بن دينار قال: لما مات أبو طالب قال له ﷺ: لأستغفرنَّ لك، فأخذ المسلمون يستغفرون لموتاهم الذين ماتوا وهم مشركون، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، فقالوا: قد استغفر إبراهيم لأبيه، فأنزل سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية، ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا﴾ إبراهيم ﴿إِيَّاهُ﴾ بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ رجاء أن يُسلم، لعدم تبين أمره، وإلاَّ لما وعدها إياه كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ أي لإبراهيم بأن أوحي إليه ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي أنَّ أباه ﴿عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ أي مستمر على عداوته تعالى، وعدم الإيمان به ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ عن الاستغفار له ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ يكثر التأوه، وهو كناية عن فرط ترحمه، ورأفة قلبه، تأوه مثل توجَّع وزناً ومعنى، وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن شداد قال: قال رجل: يا رسول الله ما الأوّاه؟ قال: الخاشعُ المتضرع ﴿حَلِيمٌ﴾ صبورٌ على الأذى صفوح عن الجناية.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمَۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ وليس من عادته سبحانه أن يضلَّ قوماً عن طريق الحق ويجري عليهم أحكامه، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ للإسلام ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم﴾ بالوحي صريحاً أو دلالة ﴿مَّا يَتَّقُونَ﴾ أي ما يجب اتقاؤه من المحظورات، فلا ينزجروا عما نهوا عنه، وأمَّا قبل ذلك فلا يسمى ما صدر عنهم ضلالاً، ولا يؤاخذون به، فكأنه تسلية للذين استغفروا للمشركين قبل البيان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي إن الله تعالى عليم بجميع الأشياء فيبين لهم ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من غير شريك له فيه ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾

﴿وَمَا لَكُم﴾ أيها الناس ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي من غيره ﴿مِن وَلِيّٖ﴾ يحفظكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يمنعكم من الضرر، بيَّن تعالى أنه مالك كل موجود، ومتولي أمره والغالب عليه، ولا يتأتى لهم ولايةٌ ولا نصرةٌ إلاَّ منه تعالى، ليتوجهوا إليه ويتبرؤوا عما عداه، حتى لا يبقى لهم مقصود سواه عز وجل.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ المراد ذكر التوبة على المهاجرين والأنصار، إلا أنه جيء بذكر النبي ﷺ تشريفاً لهم، وقيل: إن توبة الله على النبي ﷺ فُسِّر - كما روي عن ابن عباس - بالإذن للمنافقين في التخلف، وأما توبة الله على المهاجرين والأنصار، فلأجل ما وقع في قلوبهم من الميل إلى القعود، لأنَّ الغزوة كانت في وقت شديد، والمعنى: ما من أحد إلا وهو محتاج إلى التوبة، حتى النبي والمهاجرون والأنصار، لقوله تعالى: ﴿وتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أيها المؤمنون﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ أي في وقتها، وهي حالهم في غزوة تبوك كانوا في عسرة، وكانوا في شدة من الظهر، يعتقب العشرة على بعير واحد، وفي شدة من الزاد تزودوا التمر المسوس، وبلغت بهم الشدة أن قسم التمرة اثنان، وفي شدة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها، وفي شدة زمان من حُمَّارة القيظ ومن الجدب والقحط، ومن هنا قيل لتلك الغزوة «غزوة العسرة» ولجيشها جيش العسرة ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ بيان لتناهي الشدائد وبلوغها إلى ما لا غاية وراءها، وهو إشراف بعضهم إلى أن يميلوا إلى التخلف ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ تكرير

للتأكيد، وفيه تنبيه على أن توبته سبحانه بمقابلة ما قاسوه من الشدائد ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ أي لطيف رحيم بالمؤمنين، ومن أجل ذلك تاب عليهم.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ أي وتاب على الثلاثة ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ أي تخلفوا عن الغزو، وهم «كعب، وهلال و مُرارة» ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ برحبها وسعتها، لإعراض الناس عنهم بالكلية، بأمر الرسول ﷺ، وهو مثل لشدة الحيرة، فلا يجد مكاناً يؤمن فيه، كأنه لا يستقر به قرار، ولا تطمئن به دار ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ قلوبهم من فرط الوحشة والغم بحيث لا يسعها أنس وسرور، وفي هذا ترقٍ من ضيق الأرض عليهم إلى ضيقهم في أنفسهم وهو في غاية البلاغة ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أي وعلموا وأيقنوا ﴿أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ إلى استغفاره، وإلى الرجوع والإنابة إليه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بالتوفيق للتوبة بعد خمسين يوماً أو أكثر ﴿لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ أي ليستقيموا على توبتهم، ويستمرُّوا عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي تواب لمن تاب وأناب، ولو عاد في اليوم مائة مرة، الرحيم المتفضل على عباده بأنواع النعم، مع استحقاقهم لأفانين العقاب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما لا يرضاه وراقبوه في كل ما تأتون وما تذرون ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في إيمانهم وعهودهم، نية، وقولاً، وعملاً.

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

﴿ مَا كَانَ ﴾ أي ما صحَّ وما استقام ﴿ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ والأعراب عام لكل سُكَّان البوادي ﴿ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ إذا دعاهم عند توجهه إلى الغزو معه، عبَّر عن النهي بصيغة النفي للمبالغة ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ أي ولا يصونوا أنفسهم عما لم يصن نفسه عنه، ويكابدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب، وظاهر الآية وجوب النفير إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو بنفسه، واستدل بها أن الجهاد كان فرض عين في عهده ﷺ، وبه قال ابن بطَّال، وعلله بأنهم بايعوه ﷺ عليه، ولا يخفى ما في الآية من التعريض بالمتخلفين رغبة باللذائذ والشهوات، غير مكترثين، بما كابده ﷺ، وجاء أن ناساً من المسلمين تخلَّفوا ثم إن منهم من ندم، فلحق برسول الله ﷺ كأبي خيثمة، فقد روي أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء، فرشَتْ له في الظلِّ، وبسطت له الحصير، وقرَّبت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظللٌ ظليلٌ، ورُطَب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسولُ الله ﷺ في الضحِّ أي ـ الشمس والحر ـ والريح، ما هذا بخير، فقام فرحَّل ناقته، وأخذ سيفه ورمحه، ومرَّ كالريح فمدَّ رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق فإذا براكب وراء السَّراب، فقال ﷺ: كن أبا خيثمة، فكان، ففرح به ﷺ واستغفر له ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما دل عليه من الكلام من وجوب المشايعة ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ شيءٌ من العطش، ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ أي تعب ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ أي مجاعةٌ، خَمُصَ الشخص خمصاً فهو خميص: إذا جاع ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي

في سبيل إعلاء كلمة الله، وفي طاعته سبحانه ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا﴾ أي ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بأرجلهم أو حوافر خيولهم، والوطءُ: الدَّوسُ بالأقدام ونحوها ﴿يَغِيظُ﴾ يغضب ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾ يغضبهم وطؤه ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾ أي لا يأخذون ﴿مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾ شيئاً من الأخذ كالقتل، والأسر، والسَّلب ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ﴾ أي ثواب عظيم، بحكم الوعد والثواب الجميل، والتنوين للتفخيم، دلت هذه الآية على أن من قصد طاعةً، كان قيامه وقعوده، وحركته وسكونه، كلها حسنات مكتوبة عند الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ على إحسانهم، وهو تعليل وتنبيه على أن الجهاد إحسانٌ، أمَّا في حق الكفار، فلأنه سعيٌ في تكميلهم بأقصى ما يمكن، كضرب الطبيب للمريض الجاهل، وأمَّا في المؤمنين فلأنه صيانة لهم من سطوة الكفار واستيلائهم.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢١﴾.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ﴾ ولو تمرة ﴿وَلَا كَبِيرَةٗ﴾ مثل ما أنفق عثمان في جيش العسرة ﴿وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا﴾ في مسيرهم وهو كل منفرج في الجبال والآكام ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ﴾ أي أثبت لهم ذلك الذي فعلوه، من الإنفاق، والقطع ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذلك ﴿أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ جزاء أحسن أعمالهم، وهو سبحانه اختار لهم أحسن جزاء.

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾.

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ أي وما استقام لهم أن ينفروا جميعاً لنحو غزو وجهاد، كما لا يستقيم لهم أن يقعدوا جميعاً، فإن خروجهم كافة يخلُّ بأمر المعاش، روي عن ابن عباس أنه تعالى لمَّا شدَّد على المتخلفين، قالوا لا يتخلف أحد منا عن جيش وسرية، ففعلوا ذلك، وبقي ﷺ وحده، فنزل ﴿وَمَا كَانَ﴾ الآية ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ لولا هنا تحضيضية وهي مع الماضي تُفيد التوبيخ على ترك الفعل، ومع المضارع تفيد طلبه والأمر به، لكنَّ اللوم على الترك فيما يمكن تلافيه ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ جماعة كثيرة كأهل بلدة أو قبيلة عظيمة ﴿مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ أي جماعة قليلة، وحملُ الفرقة والطائفة على ذلك مأخوذ من السياق ومن البعضية، وإلاَّ فالجوهري لم يفرّق بينهما ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ ليتكلفوا الفقاهة فيه، فهو لا يحصل بدون جد وجهد ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة إرشاد القوم وإنذارهم، وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية، وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم فيه، أن يستقيم ويقيم، لا الترفع على الناس، كما هو ديدن أبناء الزمان، والله المستعان ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي لعلهم يحذرون عقاب الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وذهب كثير من الناس إلى أن المراد من النفر: الخروج لطلب العلم، فالآية ليست متعلقة بما قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أُمروا بقتال الأقرب منهم، لأنه من المعلوم أنه لا يمكن قتال جميع الكفار في زمان واحد، فكان من قَرُب أولى، وهذا إرشاد إلى طريق تحصيله على الوجه الأصلح، ومن هنا قاتل ﷺ أولاً قومه، ثم انتقل إلى سائر العرب واليهود، وجرى أصحابه على سنته ﷺ إلى أن وصلت سراياهم إلى ما شاء الله،

ولأن الأقرب أحق بالشفقة والإستصلاح، ولذا أُمر ﷺ أولاً بإنذار عشيرته الأقربين ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شدةً وصبراً على القتال، ومجاهدة لهم بشتى أنواع الجهاد، والغلظة هنا بمعنى الشجاعة والشدة، والعنف في القتل والأسر، حتى نُقلِّم أظافر الكفر، والفائدة فيها أنها أقوى تأثيراً في الزجر عن القبيح، وهذه هي صفة المؤمن، أنه رفيق بأخوانه المؤمنين، شديد على الكافرين، كما قال سبحانه في وصف أصحاب الرسول ﷺ: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ وكقوله: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ وفي الحديث الشريف «أنا الضَّحوكُ القتال»[1] يعني أنه ضحوك في وجه وليّه، قتّال لهام عدوه. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالعصمة والنصرة، وفيه دلالة على أن إقدامهم على الجهاد، بسبب تقوى الله، لإعلاء كلمة الله تعالى، لا بسبب المال والجاه.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من سور القرآن ﴿فَمِنْهُم﴾ أي فمن المنافقين كما روي عن قتادة وغيره ﴿مَّن يَقُولُ﴾ استهزاء لإخوانهم المنافقين ليثبتهم على النفاق ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي السورة ﴿إِيمَٰنًا﴾؟ أي تصديقاً ويقيناً؟ وهذا في مقابلة قول الله عن المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيتْ عَلَيْهِ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إيماناً﴾[2] ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ جواب من جهة الله تعالى، أي فأمَّا الذين آمنوا بالله، وبما جاء من عنده

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢/ ٤١٧ ولم أعثر على من خرَّجه.
(٢) سورة الأنفال، آية: ٢.

﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ لتصديقهم بها، وانضمام إيمانهم فيها بإيمانهم السابق ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بنزولها لأنها سببٌ لزيادة كمالهم، وارتفاع درجاتهم.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كفر، وسوء عقيدة ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ كفراً بها مضموماً إلى الكفر بغيرها، وسمي الكفر رجساً، لأنه أقبح الأشياء ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي استحكم ذلك فيهم حتى ماتوا عليه، وهذا يدل على أن الروح لها مرض، فمرضها الكفر والأخلاق الذميمة، وصحتها العلم والأخلاق الفاضلة.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ يعني المنافقين، الهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر أي ألا ينظرون ولا يرون ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي المنافقين ﴿يُفْتَنُونَ﴾ أي يبتلون بأصناف البليّات بالقحط والمرض وغيرها، ويُفضحون بكشف أسرارهم ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ والمراد من المرة أو مرتين التكثير لا العدد، فالفتنة بمعنى البلية والعذاب ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عما هم فيه ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ولا يتعظون بتلك الفتنة الموجبة للتذكر، ولا ينتهون بالتوبة.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ وهم في محفل تبليغ الوحي ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ تغامزوا بالعيون، إنكاراً لها وسخريةً، وتلفتوا كراهة سماعها، يتشاورون في إنتهاز الفرصة، في تدبير الخروج، قائلين إشارة ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾؟ من المسلمين إن قمتم من حضرة الرسول ﷺ، فإن لم يرهم أحد قاموا، وإن رآهم أقاموا ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ عن حضرته ﷺ

obeikandi.com

مخافة الفضيحة، أي انصرفوا جميعاً لعدم تحملهم سماع ذلك، لشدة كراهتهم ولغيظهم ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان، وهو يحتمل الإخبار والدعاء، والدعاء من الله وعيدٌ لهم، وإعلام بلحوق العذاب بهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ شيئاً فيه نفعهم، لسوء فهمهم، أو لعدم تدبرهم.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ الخطاب للعرب ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم، وقيل الخطاب للبشر على الإطلاق، ومعنى كونه من أنفسهم أنه من جنس البشر، كما في قوله تعالى: ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ وقرأ ابن عباس والزهري ﴿أَنْفَسِكُم﴾ بفتح الفاء من النفاسة، فالمراد من أشرف العرب ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ شديد وشاق عليه، من عزَّ عليه، بمعنى صَعُب وشقَّ ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ العنتُ: المشقةُ، أي صعب عليه ما يوقعكم في المكروه والمشقة، وهذا من شدة رأفته ورحمته بالأمة ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ على إيمانكم وصلاح حالكم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قدَّم الأبلغ منهما وهو الرأفة، التي هي عبارة عن شدة الرحمة للفواصل، وهو أمرٌ مرعي في القرآن، وصحح أن الرأفة الشفقة، والرحمة الإحسان، فيكون فيها وصفه ﷺ بدفع الضرر عنهم، وجلب المصلحة لهم، ولم يجمع هذان الاسمان لغيره ﷺ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له ﷺ تسلية له، أي فإن أعرضوا عن الإيمان بك، والتصديق بما جئت ﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ فإنه يكفيك

ويعينك عليهم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق سواه، وهو كالدليل عليه، لأن المتوحد بالألوهية هو الكافي، وهو المعين ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلاّ منه سبحانه ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي لا يعلم مقدار عظمته إلا اللهُ عزَّ وجلَّ، والمقصود من ذكره تعظيم جلال الله عزَّ وجلَّ، وختم سبحانه هذه السورة بما ذُكر، لأنه تعالى ذكر فيها التكاليف الشاقة، فأراد أن يسهّل عليهم ذلك، ويشجع النبي ﷺ على تبليغه، وقد ورد عن أبي الدرداء موقوفاً «من قال حين يصبح وحين يمسي ﴿حَسبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيهِ تَوَكَّلتُ وَهُوَ رَبُّ العَرشِ العَظِيمِ﴾ لم يصبه في ذلك اليوم، ولا تلك الليلة كربٌ ولا نكبة» وهذه الآية وِرْدي منذ سنين، وقد جاءت هذه الخاتمة لهذه السورة في غاية الحسن والإبداع، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد عبده، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التوبة»

* * *